تفسير سورة الضحى

« دراسة تحليلية »

دكتور / رفعت فوزي محمود القيعي
مدرس التفسير وعلوم القرآن
في كلية الدراسات الإسلامية والعربية بنين
بدمياط الجديدة - جامعة الأزهر

مُقَدِّمَة

﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ۜ . قَيِّمًا لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا . مَّٰكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا ﴾ { أول الكهف } .

نحمده ﷻ ونستعينه ونستهديه ونستغفره ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ، ومن سيئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادي له .

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، أوقف مَن شاء على ما شاء من أسرار مراد كتابه وألهم ، فسبحان من حكّم فأحكم ، وحلّل وحرّم ، وعرّف وعلّم ، ﴿ عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ . عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ { العلق : ٤ – ٥ } .

وأشهد أن سيدنا محمداً عبده ورسوله ﷺ ، المخصوص بجوامع الكلم ، وبدائع الحكم ، وودائع العلم والحلم والكرم ، المؤيد بالقرآن معجزة عظمى ، وآية باقية على وجه الدهر ، اصطفاه ربه لتبليغ كتابه إلى العالمين ، وهدايتهم به ، فكان ﷺ نعم ترجمان للقرآن بحاله ولسانه ، وخلقه وبيانه ، فهدى الله به أعيناً عمياً ، وآذاناً صماً ، وقلوباً غُلفاً ، وصدع به للظلم بنياناً ، وشيَّد به للعدل صرحاً ، وربى به قادة للأمم بعد أن كانوا رعاة للغنم .

فاللهم صلِّ وسلم وبارك عليه ، صلاةً تكون لنا طريقاً لقربه ، وتأكيداً لحبه، وباباً لجمعنا عليه ، وهدية مقبولة بين يديه .

ورضي الله تعالى عن الصحابة أجمعين ، وعن التابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين .

** أما بعد :

« فإن أشرف العلوم على الإطلاق ، وأولاها بالتفضيل على الاستحقاق ،

وأرفعها قدراً بالاتفاق هو علم التفسير لكلام القوي القدير»[١].

** **وهذا تفسير متواضع لسورة كريمة من سور القرآن الكريم ، وهي سورة الضحى** ، استقيته من تلك الثروة العلمية الهائلة ، والمتعددة في مجالاتها المختلفة ، وعلومها المتنوعة ، من تراثنا العظيم الخالد ، وفي مقدمة ذلك كتب التفسير القديمة والحديثة ، وبما فتح الله ﷻ علي به .

وقد سميته : « تفسير سورة الضحى ... دراسة تحليلية » .

وقد راعيت فيه سهولة العبارة ، وسلامة الأسلوب ، وحسن العرض والتنسيق ، والبعد عن التعقيد ، والترجيح بين الأقوال المختلفة ، محاولة مني الإسهام في خدمة كتاب الله العزيز الحكيم .

وسورة الضحى ... سورة عظيمة كباقي سور القرآن ، آياتها متشابكة متعانقة ، وجملها متماسكة متناسقة ، غنية بالمعاني ، محتوية على اللآلئ والدرر ، مليئة بالأسرار والكنوز والنفائس والذخائر ، فقد تضمنت ــ كسائر سور القرآن ــ معارف جمّة ، وعلوماً شتى .

وإذا كان القرآن الكريم قد عني بالحديث عن سيدنا محمد ﷺ ، وما أعطاه الله ﷻ له من المكانة والفضل والشرف ــ فهو ﷺ محل العناية الربانية ، وهو ﷺ كريم المكانة ، جليل القدر ، رفيع المنزلة ــ بل اختصت بعض السور بالحديث عنه ﷺ ، إلا أن « سورة الضحى » قد أولته ﷺ عناية خاصة ، حيث انفردت ــ رغم قصرها ، وقلة عدد آياتها ــ بالحديث عن بعض أحواله ﷺ الماضية، وما أعده الله ﷻ له ﷺ في أحواله المستقبلة. كما أنها جاءت شاملة لأحكام وآداب ، ونِعَم ووصايا ، وأوامر ونواهٍ ، قد

(١) فتح القدير للشوكاني (١/١١) .

لا تجدها مجتمعة في سورة سواها .

إن سورة الضحى مدرسة متكاملة ، جاءت لتربي الأمة ــ في شخص نبيها ﷺ ــ على سمو الأخلاق ، وفضائل الأعمال ، وعلو الهمم .

ولما كانت هذه السورة كلها تدور حول شخصية النبي ﷺ ، فقد آثرت أن أفسرها جملة دون أن أقسمها مقاطع .

** **ومهما قلتُ أو كتبتُ عن هذه السورة أنا وغيري** ، ممن سبقني أو لحقني ، فلن نوفيها حقها ، إلا بقدر طاقتنا البشرية ، وبما يفتح الله علينا ، ﴿ مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ { فاطر : ٢ } ، إذ « سيظل هذا الكتاب الكريم منهلاً عذباً ، ومورداً صافياً ، ومادة خصبة للباحثين والمفكرين ، يدورون في فَلَكه الدَّوَّار ، ويستظلون بظله الظليل ، ويستهدون بهديه القويم ، ويسيرون على ضوئه ومنارته .

وسيستمر مصدر حركة فكرية ، وباعث حياة شعوب ، ومجدد شباب أمة ، وحارس لغة هي أشرف اللغات ، وأعذبها ، ومشغلة للفكر الإنساني ، حتى يرث الله الأرض ومن عليها ، وهو خير الوارثين » [١].

وهو بحر خضم ، غايته لا تُدْرَك ، ونهايته طَوْد شامخ لا يُستَطَاع إلى ذُروته أن تُسْلك .

يقول صاحب الظلال : « النصوص القرآنية ــ كما علمتنا التجربة ــ تفصح عن إيحاءاتها لكلِّ قلبٍ بحسْبِ ما هو فيه من الشأن ، وبقدر حاجته الظاهرة فيه ، ويبقى لها رصيدها المذخور ، تتفتح به على القلوب في شتى المواقف ، على

(١) المدخل لدراسة القرآن الكريم ، للدكتور/ محمد محمد أبو شهبة (ص٤٦) مكتبة السنة ــ القاهرة ، ط/ الثانية ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٣م .

قدر مقسوم » [١].

** ولقد سلكت في تفسير هذه السورة المباركة المنهج التحليلي ، وكانت خطتي في هذه الدراسة ــ بعد المقدمة ــ على النحو التالي :

** **أولاً : التمهيد ، وهو بعنوان : « بين يدي سورة الضحى »** .

وقد تحدثت فيه عن : سورة الضحى ، من حيث أسماؤها ، وزمان ومكان نزولها ، وعدد آياتها وكلماتها وحروفها ، وفضلها ، ومناسبتها لما قبلها ، وسبب نزولها ، والحكمة من نزولها ، وما حوته من موضوعات وأهداف .

** **ثانياً : التفسير التحليلي للسورة ، وقد جاء على النحو التالي :**

(١) كتبتُ آيات السورة المباركة بالرسم العثماني .

(٢) بينتُ معاني المفردات .

(٣) ذكرتُ المعنى العام لآيات السورة الكريمة .

(٤) شرعتُ في التحليل والاستنتاج ، فبينت مناسبة الآيات لما قبلها ، ثم ذكرت سبب نزول الآيات إن وجد ، ثم ذكرت ما يتعلق بآيات السورة : من أسرار وحكم ، واستنباطات تفسيرية ، وأحكام شرعية ، وبعض الطرائف الإعرابية ، واللطائف البلاغية ، والقراءات القُرآنيّة . وأخيراً ذكرت ما ترشد إليه الآيات الكريمات .

(٥) عزوت الآيات القرآنية الواردة في البحث إلى سورها ، مع ذكر أرقامها بجانب الآية أو الآيات في صلب البحث حتى لا تطول الصفحات بكثرة الحواشي .

(٦) خرجت الأحاديث النبوية من مصادرها الأصلية ، مع الحكم على ما

(١) في ظلال القرآن ، للأستاذ / سيد قطب (٢٦٣/١) .

يحتاج إلى ذلك .

(٧) خرجت الآثار التفسيرية من كتب التفسير بالأثر المسندة : كتفسير الطبري ، وابن أبي حاتم ، وأبواب التفسير من كتب السنة .

(٨) وثقتُ القراءات القرآنية ، ووجهتها من الكتب المختصة بذلك ، وإن لم أجدها فيها أوثقها من كتب التفسير التي اهتمت بجمع القراءات وتوجيهها ، كتفسير المحرر الوجيز ، وتفسير البحر المحيط ، والدر المصون .

(٩) نسبتُ الأبيات الشعرية إلى قائليها من دواوينهم إن تمكنت من ذلك ، وإلا ذكرتُ من ذكرها من العلماء .

** **ثالثاً : الخاتمة** ، وتتضمن نتائج البحث .

** **رابعاً** : ذكرتُ أهم المصادر والمراجع التي اعتمدت عليها في هذه الدراسة ، ثم فهرس الموضوعات .

ويعلم الله ﷻ أنني قد بذلت غاية جهدي في تفسير هذه السورة المباركة ، غير مدع عصمة ، ولا متبرئ من زلة ، ووجه الله العظيم لا غيره قصدت ، وثوابه أردت ، وهو المسئول في المعونة عليه ، والانتفاع به ، إنه طيب الأسماء سميع الدعاء .

وعليه ، فلا أدعي أنني قد بلغت في بحثي هذا الكمال ، فالكمال لله وحده ﷻ ، والتفسير لا يحيط به إلا نبي ، فإن كنت قد أصبت في بحثي هذا ، فذلك من فضل الله ، وعظيم توفيقه ، ﴿ وَمَا تَوْفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴾ {هود : ٨٨ } ، ولا حول ولا قوة إلا به عز شأنه ، وأسأله من ذلك المزيد .

وإن كنت قد أخطأت فذلك مني ومن الشيطان ، وحسبي أنني بشر ، ﴿ مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ۖ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ ﴾ { النساء : ٧٩}، وأتوب إلى الله وأستغفره من ذلك .

وأسأل الله ﷻ أن يخلص في هذا العمل نيتي ، ويوجه إليه ﷻ وجهتي ، وأن يجعله في ميزان عملي ، وأن يشرح صدور العباد للانتفاع به ، وأن يبارك فيه بمنه وكرمه وجوده ، وأن يرزقنا حسن القبول ، وأن يهيء لنا من أمرنا رشداً ، وأن يجعلنا من الذين يكون القرآن شفيعاً لهم يوم القيامة ، فقلوبنا ونواصينا ، وخفايانا وظواهرنا بيده ﷻ ، إن ربي سميع مجيب .

** ﴿ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ { البقرة : ١٢٧ } .

** ﴿ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ ۖ وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآ ۚ أَنتَ مَوْلَىٰنَا فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ {البقرة: ٢٨٦ } .

** ﴿ رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴾ { آل عمران : ٨ } .

** ﴿ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ { الحشر : ١٠ } .

وآخر دعونا أن الحمد لله رب العالمين .

وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

دكتور /

رفعت فوزي محمود القيعي

المدرس في كلية الدراسات الإسلامية

والعربية بنين بدمياط الجديدة

التمهيد

بين يدي السورة الكريمة

قبل أن نعايش هذه السورة المباركة ، ونقف على تفسيرها ، لابد من أن نقدم لذلك بالحديث عنها ، من حيث أسماؤها ، وزمان ومكان نزولها ، وعدد آياتها وكلماتها وحروفها ، وفضلها ، ومناسبتها لما قبلها ، وسبب نزولها ، والحكمة من نزولها ، وما حوته من موضوعات وأهداف ، وهاك البيان .

**** أسماء سورة الضحى :**

تسمى هذه السورة الكريمة بـ « سورة الضحى » ؛ وذلك لمفتتحها بالقسم بـ « الضحى » ، ولم يقع ذلك في غيرها من سور القرآن .

وقد ورد تسميتها في السنة النبوية : سورة ﴿ وَٱلضُّحَىٰ ﴾ بالواو .

ففي الصحيحين ، واللفظ لمسلم : عن جابر بن عبد الله ـ رضي الله عنهما ـ ، قال : كَانَ مُعَاذٌ يُصَلِّي مَعَ النَّبِيِّ ﷺ ، ثُمَّ يَأْتِي فَيَؤُمُّ قَوْمَهُ ، فَصَلَّى لَيْلَةً مَعَ النَّبِيِّ ﷺ الْعِشَاءَ ، ثُمَّ أَتَى قَوْمَهُ فَأَمَّهُمْ ، فَافْتَتَحَ بِسُورَةِ الْبَقَرَةِ ، فَانْحَرَفَ رَجُلٌ فَسَلَّمَ ، ثُمَّ صَلَّى وَحْدَهُ وَانْصَرَفَ ، فَقَالُوا لَهُ أَنَافَقْتَ يَا فُلَانُ ؟ قَالَ : لا وَاللَّهِ ، وَلآتِيَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَلأُخْبِرَنَّهُ ، فَأَتَى رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، إِنَّا أَصْحَابُ نَوَاضِحَ (١) نَعْمَلُ بِالنَّهَارِ ، وَإِنَّ مُعَاذًا صَلَّى مَعَكَ الْعِشَاءَ ، ثُمَّ أَتَى فَافْتَتَحَ

(١) **النَّواضِح** : جمع ناضح ، وهو البعير الذي يُستَقى عليه للشجر والزراعة . ويُجمع أيضاً على نُضَّاح .

وفسّره بعضهم : بالرَّقيق الذين يكونون في الإبل ، فالغِلمان نُضَّاحٌ ، والإبل نَواضِحَ . ينظر:

بِسُورَةِ الْبَقَرَةِ ، فَأَقْبَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَلَى مُعَاذٍ فَقَالَ : « يَا مُعَاذُ أَفَتَّانٌ أَنْتَ [١] ؟ اقْرَأْ بِكَذَا وَاقْرَأْ بِكَذَا » .

قَالَ سُفْيَانُ : فَقُلْتُ لِعَمْرٍو [٢]: إِنَّ أَبَا الزُّبَيْرِ [٣] حَدَّثَنَا عَنْ جَابِرٍ أَنَّهُ قَالَ : «اقرأ : ﴿ وَٱلشَّمْسِ وَضُحَىٰهَا ﴾ ، ﴿ وَٱلضُّحَىٰ ﴾ ، ﴿ وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ ﴾ ، ﴿ سَبِّحِ

الفائق في غريب الحديث للزمخشري (٣٨٣/٢) والنهاية في غريب الحديث لابن الأثير (٦٨/٥) .

وأراد الرجل بفعله هذا أن يقول : إنا أصحاب عمل وتعب ، نعمل بأيدينا ، فلا نستطيع تطويل الصلاة . ينظر : شرح النووي على صحيح مسلم (١٨٢/٤) وعون المعبود شرح سنن أبي داود ، للعلامة / أبي الطيب محمد شمس الحق العظيم آبادي (٤/٣) دار الكتب العلمية ــ بيروت ، ط / الثانية ١٤١٥هـ .

(١) **قوله : « أفتان أنت » ؟ أي** : منفر عن الدين ، وصاد عنه . شرح النووي على صحيح مسلم (١٨٢/٤) .

قال الطيبي : استفهام على سبيل التوبيخ ، وتنبيه على كراهة صنعه ، لأدائه إلى مفارقة الرجل الجماعة ، فافتتن به . ينظر : عون المعبود شرح سنن أبي داود (٤/٣) .

قال الحافظ ابن حجر: ومعنى الفتنة ههنا : أن التطويل يكون سبباً لخروجهم من الصلاة وللتكره للصلاة في الجماعة.

وروى البيهقي في الشعب ــ بإسناد صحيح ــ عن عمر قال : « لا تبغضوا إلى الله عباده ، يكون أحدكم إماماً فيطول على القوم الصلاة ، حتى يبغض إليهم ما هم فيه » . **وقال الداودي** : يحتمل أن يريد بقوله : « فتان » أي : معذب ، لأنه عذبهم بالتطويل ، ومنه قوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُوا۟ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا۟ فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ ﴾ { البروج : ١٠} ، قيل : معناه : عذبوهم . ينظر : فتح الباري للحافظ ابن حجر (١٩٥/٢) .

(٢) **والمراد بسفيان** : سفيان بن عُيَيْنَة . **والمراد بعمرو** : عمرو بن دينار ، وهما من رجال سند هذا الحديث .

(٣) **هو** : محمد بن مسلم بن تَدْرُس ، أبو الزبير القرشي الأسدي المكي ، الإمام الحافظ الصدوق ، مولى حكيم بن حزام ، روى عن : جابر بن عبد الله ، وابن عباس ، وابن عمر ، وغيرهم . توفي ــ رحمه الله ــ سنة ثمان وعشرين ومائة . ينظر : سير أعلام النبلاء ، للحافظ / شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي ــ ت ٧٤٨هـ ، تحقيق / شعيب الأرنؤوط (٣٨٠/٥) مؤسسة الرسالة ــ بيروت ، ط / التاسعة ١٤١٣هـ .

ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ﴾ » . فَقَالَ عَمْرٌو : نَحْوَ هَذَا » [١].

وفي رواية النسائي : عن جابر ــ رضي الله عنهما ــ قال : قَامَ مُعَاذٌ ﷺ فَصَلَّى الْعِشَاءَ الآخِرَةَ ، فَطَوَّلَ ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ : « أَفَتَّانٌ يَا مُعَاذُ ؟ أَفَتَّانٌ يَا مُعَاذُ ؟ أَيْنَ كُنْتَ عن ﴿ سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ﴾ ﴿ وَٱلضُّحَىٰ ﴾ و﴿ إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ ﴾»[٢].

ولا تعارض بين تسميتها بسورة « الضحى » ، وبسورة « والضحى » ، فهو يقصد السورة التي مفتتحها قوله تعالى : ﴿ وَٱلضُّحَىٰ ﴾ .

* * *

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه : كتاب الصلاة ، أبواب صلاة الجماعة والإمامة ، باب (٣٥) من شكا إمامه إذا طول (٢٤٩/١) ح (٦٧٣) ومسلم في صحيحه : كتاب الصلاة ، باب (٣٦) القراءة في صلاة العشاء (٣٣٩/١) ح (٤٦٥) .

(٢) أخرجه النسائي في سننه : كتاب الافتتاح ، باب (٧٠) القراءة في العشاء الآخرة ﴿ سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ﴾ (١٧٢/٢) ح (٩٩٧) .

** زمان ومكان نزول سورة الضحى :

سورة الضحى مكية بالإجماع [١].

عن ابن عباس ــ رضي الله عنهما ــ قال : نزلت سورة الضحى بمكة [٢].

وقد نزلت هذه السورة المباركة بعد سورة الفجر ، وقبل سورة الشرح .

وعدت السورة «**الحادية عشرة**» في تعداد ترتيب نزول سور القرآن[٣]، و«**الثالثة والتسعون**» في تعداد ترتيب المصحف .

وهي أول سورة في قصار سور المفصل ، على أرجح الأقوال [٤].

---

(١) ينظر : زاد المسير (١٥٤/٩) والجامع لأحكام القرآن (٩١/٢٠) وتفسير البيضاوي (٥٠١/٥) وتفسير البحر المحيط (٤٨٠/٨) وتفسير ابن كثير (٥٢٢/٤) والإتقان في علوم القرآن (٣٧/١) والتحرير والتنوير (٣٩٤/٣٠) .

(٢) أورده السيوطي في الدر المنثور (٥٣٩/٨) وعزاه لابن الضريس والنحاس وابن مردويه والبيهقي .

(٣) **لأن أول ما نزل من القرآن بمكة هو** : العلق ، ثم القلم ، ثم المزمل ، ثم المدثر ، ثم الفاتحة، ثم المسد ، ثم التكوير ، ثم الأعلى ، ثم الليل ، ثم الفجر ، ثم الضحى ، ثم الشرح ، ثم العصر ... إلخ . ينظر : البرهان للزركشي (١٩٣/١) والإتقان للسيوطي (٣٨/١) .

(٤) **آخر المفصل : سورة الناس بلا خلاف** ، واختلف في أوله على اثني عشر قولاً ، فقيل : سورة ق ، وقيل : أوله سورة الحجرات ، وصحح النووي ذلك ، وقيل : سورة القتال . محمد . ، وعزاه الماوردي للأكثرين ، وقيل : سورة الجاثية . ينظر : البرهان في علوم القرآن للزركشي (٢٤٤/١) والإتقان للسيوطي (١٧٣/١) وفصل الخطاب في سلامة القرآن الكريم ، للدكتور / أحمد الكومي ، والدكتور / محمد أحمد القاسم (صـ ١٥) دار إحياء الكتب العربية ــ ط / الثانية ، بدون .

** **والمفصل ثلاثة أقسام : طوال ، وأوساط ، وقصار .**

فطواله إلى سورة النبأ ، وأوساطه منها إلى الضحى ، ومنها إلى آخر القرآن قصاره ، هذا أقرب ما قيل فيه . وقيل غير ذلك . ينظر : فتح الباري لابن حجر (٨٤/٩) والإتقان للسيوطي (١٧٤/١) ومناهل العرفان (٢٤٤/١) .

** عدد آيات السورة ، وكلماتها وحروفها :

عدد آيات سورة الضحى إحدى عشرة ، باتفاق القراء .

وعدد كلماتها : أربعون كلمة .

وعدد حروفها : مائة واثنتان وسبعون حرفاً [١].

** فضل سورة الضحى :

موضوع فضائل سور القرآن من الموضوعات التي دُسَّ فيها السم في العسل ، حيث وضعت أحاديث كثيرة في فضائل السور والآيات ، حتى وصل الأمر إلى أن وضعوا أحاديث طويلة تستقصي القرآن الكريم سورة سورة ، تنسب لقاريء كل سورة من سوره من الفضل كذا وكذا ، ومن الأجر كيت وكيت .

وقد قصد واضعوها ترغيب الناس في قراءة القرآن الكريم ، وزعموا : أن في ذلك حسبة إلى الله تعالى ، وهذا غلط فادح ، وقصد فاسد ، وزعم باطل .

ولا شك أنهم داخلون تحت الوعيد الشديد في قوله ﷺ : « مَنْ كَذَبَ عَلَيَّ مُتَعَمِّداً ، فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنْ النَّارِ » [٢]. وأنه لا فرق بين الكذب عليه ، والكذب له .

وكان من فضل الله ﷻ على دينه وعلى عباده المؤمنين أن قيض من علماء الأمة الإسلامية نقاداً ميزوا هذه الأباطيل ، واستقصوا عن مصادرها ، وفضحوا

---

(١) **ينظر في عدد آي وكلمات وحروف سورة الضحى**: مجمع البيان في تفسير القرآن ، لأبي علي الطبرسي (٣٠٠/١٠) وفنون الأفنان في عيون علوم القرآن ، لأبي الفرج عبد الرحمن ابن الجوزي (ص٣١٥) وبصائر ذوي التمييز للفيروزآبادي (٥٢٥/١) والإتقان في علوم القرآن للسيوطي (١٨٣/١) .

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه : كتاب العلم ، باب (٣٨) إثم من كذب على النبي ﷺ (٥٢/١) ح (١١٠) من حديث أبي هريرة ﷺ .

واضعيها ، وخطأوا كل من أوردها من المفسرين في تفسيره لكتاب الله ﷻ .

« قيل لعبد الله بن المبارك ﷺ : هذه الأحاديث الموضوعة ، فقال : تعيش لها الجهابذة ، ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ { الحجر : ٩ } » (١).

ومن أمثلة ذلك : الحديث الطويل المنسوب لسيدنا أبي بن كعب ﷺ عن النبي ﷺ في فضائل القرآن سورة سورة .

عن أبى بن كعب ﷺ قال : قال لي رسول الله ﷺ : « يا أبى من قرأ فاتحة الكتاب أعطى من الأجر ... فذكر سورة سورة وثواب تاليها إلى آخر القرآن » (٢).

هذا ، وقد فرق هذا الحديث أبو إسحاق الثعلبي في تفسيره ، فذكر عند كل سورة منه ما يخصها ، وتبعه أبو الحسن الواحدى في ذلك ، والزمخشري في الكشاف ، والبيضاوي في تفسيره ، والنسفي في تفسيره .

ولا شك أن هذا الصنيع قبيح منهم ، لأن الحديث الموضوع تحرم روايته مع العلم بوضعه ، في أي معنى كان { أحكام ، أو قصص ، أو ترغيب ، أو غيرها} ، إلا مقروناً ببيان وضعه ، وقد صح عن رسول الله ﷺ أنه قال : « مَنْ حَدَّثَ عَنِّي بِحَدِيثٍ يُرَى أَنَّهُ كَذِبٌ ، فَهُوَ أَحَدُ الْكَاذِبِينَ » (٣).

---

(١) تدريب الراوي في شرح تقريب النواوي ، للإمام / جلال الدين السيوطي (٢٨٢/١) والإتقان للسيوطي (٤١٥/٢) .

(٢) هذا الحديث المنسوب لسيدنا أبي بن كعب ﷺ أخرجه ابن الجوزي في كتاب الموضوعات ، في أبواب تتعلق بالقرآن ، باب في فضائل السور (٢٣٩/١) كتاب الموضوعات ، للإمام / أبي الفرج عبد الرحمن بن علي بن الجوزي ــ ت ٥٩٧هـ ، تحقيق / عبد الرحمن محمد عثمان ــ دار الفكر ، ط / الثانية ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م .
والحديث له طرق متعددة ، وهو بجميع طرقه باطل موضوع . ينظر : اللآلىء المصنوعة في الأحاديث الموضوعة ، للإمام / جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي ــ ت ٩١١هـ (صـ ١١٧ - ١١٨) دار المعرفة ــ بيروت ، بدون .

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه : المقدمة ، باب (١) وجوب الرواية عن الثقات وترك الكاذبين (٨/١) من

** وعليه ، فقد ورد في فضل سورة الضحى مجموعة من الأحاديث والآثار ، منها ما هو مقبول ، ويشمل الأحاديث والآثار : الصحيحة ، والحسنة ، والضعيفة ضعفاً يُعتد به ، ومنها ما هو غير مقبول ، ويشمل الأحاديث والآثار : شديدة الضعف ، والموضوعة ، وهاك البيان .

** **ولكن قبل ذلك قد يقال** : كان الأولى أن تكتفي بما صح سنده ، ففيه غنية عن شديد الضعف والموضوع ؟

والجواب : أنا نذكر ذلك ليقف عليه القاريء ، فلا يغتر بها ، ويقف عند ما هو مقبول منها ، خاصة وأن بعض كتب التفسير ملأى بمثل هذه الأحاديث والآثار غير المقبولة .

فذكري لها من باب التنبيه والتحذير ، لا من باب الاستشهاد والاحتجاج .

** **أولاً : القسم المقبول :**

~~~~~~~~~~~~~~~~~~

(١) سورة الضحى من سور المفصل ، الذي فُضل به النبي ﷺ على سائر الأنبياء والمرسلين .

قال ﷺ : « أُعْطِيتُ مَكَانَ التَّوْرَاةِ السَّبْعَ ، وَأُعْطِيتُ مَكَانَ الزَّبُورِ الْمِئِينَ ، وَأُعْطِيتُ مَكَانَ الإِنْجِيلِ الْمَثَانِيَ ، وَفُضِّلْتُ بِالْمُفَصَّلِ » (١).

وعن ابن مسعود ﷺ قال : « إن لكل شيء سناماً ، وإن سنام القرآن سورة

حديث سمرة ابن جندب ، والمغيرة بن شعبة ــ رضي الله عنهما ــ .

(١) أخرجه في الإمام أحمد في مسنده (١٠٧/٤) من حديث واثلة بن الأسقع ﷺ ، وأورده الهيثمي في مجمع الزوائد : كتاب التفسير، باب سورة الحجر(٤٦/٧) وقال : «رواه أحمد ، وفيه عمران القطان، وثقه ابن حبان وغيره ، وضعفه النسائي وغيره ، وبقية رجاله ثقات » . **وعلى هذا . فالحديث حسن.** ينظر : الأحاديث والآثار الواردة في فضائل سور القرآن الكريم ، دراسة ونقد ، للدكتور / إبراهيم علي السيد عيسى (صـ ٢٢٥) دار السلام ــ القاهرة ، ط / الأولى ١٤٢١هـ .
~~~~~~~~~~~~~~~~~~

البقرة ، وإن لكل شيء لباباً ، وإن لباب القرآن [١] المفصل » [٢].

(٢) سورة الضحى من السور التي أرشد النبي ﷺ معاذاً بن جبل ﷺ أن يقرأ بها في صلاة العشاء .

ففي الصحيحين ، واللفظ لمسلم : عن جابر بن عبد الله ــ رضي الله عنهما ــ « أن رسول الله ﷺ قال لمعاذ ﷺ بعد أن اشتكى رجل من طول قراءته في صلاة العشاء : « يا معاذ أفتان أنت ؟ اقرأ بكذا ، واقرأ بكذا » . وحدد له سور: ﴿وَٱلشَّمْسِ وَضُحَىٰهَا﴾ ، ﴿وَٱلضُّحَىٰ﴾ ، ﴿وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ﴾ ، ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾ . وقد سبق ذكر الحديث بتمامه عند الحديث عن أسماء سورة الضحى .

(٣) سورة الضحى ، من السور التي كان النبي ﷺ يقرأ بها في صلاة المغرب .

عَنْ سُلَيْمَانَ بْنِ يَسَارٍ ﷺ ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ ، قَالَ : مَا صَلَّيْتُ وَرَاءَ أَحَدٍ أَشْبَهَ صَلاَةً بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ مِنْ فُلاَنٍ . قَالَ سُلَيْمَانُ : كَانَ يُطِيلُ الرَّكْعَتَيْنِ الأُولَيَيْنِ مِنَ الظُّهْرِ ، وَيُخَفِّفُ الأُخْرَيَيْنِ ، وَيُخَفِّفُ الْعَصْرَ ، وَيَقْرَأُ فِي الْمَغْرِبِ بِقِصَارِ الْمُفَصَّلِ ، وَيَقْرَأُ فِي الْعِشَاءِ بِوَسَطِ الْمُفَصَّلِ ، وَيَقْرَأُ فِي الصُّبْحِ بِطُولِ الْمُفَصَّلِ»[٣].

---

(١) اللُّبابُ : الخالِصُ من كل شيءٍ ، ولُبُّ : كلِّ شيءٍ ، ولُبابُه : خالِصُه وخِيارُه . ينظر : لسان العرب (٧٢٩/١) مادة . لبب . .

(٢) أخرجه الدارمي في سننه : كتاب فضائل القرآن ، باب (١٣) في فضل سورة البقرة (٥٣٩/٢) ح (٣٣٧٧) والبيهقي في شعب الإيمان : باب ، في تعظيم القرآن ، فصل في فضائل السور والآيات في ذكر المفصل (٤٨٨/٢) ح (٢٤٨٧) . وإسناده حسن . ينظر : الأحاديث والآثار الواردة في فضائل سور القرآن ، د . إبراهيم عيسى (صـ ٣١٤) .

(٣) أخرجه ابن حبان في صحيحه (١٤٥/٥) والنسائي في سننه : كتاب الافتتاح ، باب (٦١) تخفيف القيام والقراءة (١٦٧/٢) ح (٩٨٢) وصححه الألباني على سنن النسائي ، ح (٩٨٢).

**** ولذلك كانت من السور التي أمر عمر بن الخطاب ﷺ أبا موسى الأشعري ﷺ أن يقرأ بها في صلاة المغرب .**

« كتب عمر ﷺ إلى أبي موسى الأشعري ﷺ : أن اقرأ في الصبح بطوال المفصل، وأقرأ في الظهر بأواسط المفصل، واقرأ في المغرب بقصار المفصل»[١].

وقد سبق أن ذكرتُ : أن القول الراجح في تحديد قصار المفصل : من سورة الضحى إلى سورة الناس .

(٤) سورة الضحى من السور التي حث النبي ﷺ على القراءة بها في صلاة الضحى .

عن عقبة بن عامر ﷺ ، قال : « أمرنا رسول الله ﷺ أن نصلي ركعتي الضحى بسورتيهما : ﴿وَٱلشَّمْسِ وَضُحَىٰهَا﴾ ، ﴿وَٱلضُّحَىٰ﴾ » [٢].

---

(١) نصب الراية لأحاديث الهداية ، للحافظ / أبي محمد عبد الله بن يوسف الزيلعي ــ ت ٧٦٢ هـ ، تحقيق / محمد يوسف البنوري (٥/٢) دار الحديث ــ القاهرة ، ط / ١٣٥٧هـ ، وعزاه للترمذي . قال الحافظ ابن حجر : « حديث عمر ، أنه كتب إلى أبي موسى الأشعري : أن اقرأ في الفجر والظهر بطوال المفصل ، وفي العصر والعشاء بأوساط المفصل ، وفي المغرب بقصار المفصل » . أخرجه عبد الرزاق بإسناد ضعيف منقطع ، ولم يذكر الظهر والعصر ، وقد ذكر الترمذي ما يتعلق بالظهر تعليقاً . الدراية في تخريج أحاديث الهداية ، للحافظ / أحمد ابن علي بن حجر العسقلاني ــ ت ٨٥٢هـ ، تحقيق / السيد عبد الله المدني (١٦٢/١) دار المعرفة ــ بيروت ــ بدون .

(٢) أخرجه البيهقي في السنن الصغرى : كتاب الصلاة ، باب (٩٨) صلاة الضحى (صـ ٤٨٨) ح (٨٦٠) من طريق عبد الله ابن لهيعة ــ بفتح اللام وكسر الهاء ــ ، وابن لهيعة اختلف فيه، وخير ما يقال فيه : إن حديثه حسن . ينظر : تقريب التهذيب ، للحافظ / أحمد بن علي بن حجر العسقلاني ــ ت ٨٥٢هـ ، (٣١٩/١) دار الرشيد ــ سوريا ــ حلب ، بدون . قال الحافظ ابن حجر : « روى الحاكم من طريق أبي الخير ، عن عقبة بن عامر ، قال : أمرنا رسول الله ﷺ أن نصلي الضحى بسور ، منها : ﴿وَٱلشَّمْسِ وَضُحَىٰهَا﴾ ، ﴿وَٱلضُّحَىٰ﴾ » . ثم قال ابن حجر : ومناسبة ذلك ظاهرة جداً . ينظر : فتح الباري (٥٥/٣) .
أقول : لم أقف عليه في المستدرك ، وذكره الشوكاني في فتح القدير(٤٤٧/٥) وعزاه للبيهقي في شعب الإيمان . ولم أقف عليه فيه .

** ثانياً : القسم المردود :

ما ذكره بعض المفسرين [١] أخذاً من الحديث ــ السالف الذكر ، والموضوع بجميع طرقه ــ المنسوب لأبي بن كعب ﷺ : « من قرأ سورة الضحى، جعله الله ﷻ فيمن يرضى لمحمد ﷺ أن يشفع له ، وعشر حسنات يكتبها الله ﷻ له بعدد كل يتيم وسائل » .

** مناسبة سورة الضحى لما قبلها :

لما ختم الله ﷻ « سورة الليل » بأنه سيعطي الأتقى من الثواب ما به يرضى ، فقال ﷻ :

﴿ وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ ﴾ { الآية : ٢١ } ، افتتح هذه السورة بأنه ﷻ سيرضي نبيه ﷺ ، بما يؤتيه يوم القيامة من الكرامة والزلفى ، فقال ﷻ : ﴿ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ ﴾ { الآية : ٥ } .

أو لما ذكر ﷻ في « سورة الليل » قوله تعالى : ﴿ وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلْأَتْقَى ﴾ { الليل : ١٧ } . وكان سيد كل الأتقياء هو رسول الله ﷺ ، عقب ﷻ ذلك بذكر نعمه ﷻ عليه ﷺ في هذه السورة ، من قوله :

﴿ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ . وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ ٱلْأُولَىٰ . وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ . أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ . وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ . وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغْنَىٰ ﴾ .

(١) ينظر : الكشاف للزمخشري (٧٧٤/٤) ومجمع البيان للطبرسي (٣٠٠/١٠) وتفسير البيضاوي (٥٠٣/٥) والبصائر للفيروزآبادي (٥٢٥/١) وإرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم ، للعلامة أبي السعود (١٧١/٩) .

أو لما كانت « سورة الليل » سورة أبي بكر ﷺ ، وهذه « سورة الضحى » سورة رسول الله ﷺ ، عقب ــ جل وعلا ــ بها ، ولم يجعل بينهما واسطة ، ليعلم أن لا واسطة بين رسوله ﷺ والصديق ﷺ . وتقديم سورة الصديق على سورته ﷺ لا يدل على أفضليته منه ﷺ ، ألا ترى أنه ﷻ أقسم أولاً بشيء من مخلوقاته ﷻ ، ثم أقسم بنفسه ﷻ في عدة مواضع ، والخدم قد تتقدم بين يدي السادة، وكثير من السنن أمر بتقديمه على فروض العبادة ، ولا يضر النَّور [١] تأخره عن أغصانه ، ولا السِّنَان كونه في أطراف مُرَّانه [٢].

ثم إن ما ذكره زهرة ربيع لا تتحمل الفرك كما لا يخفى [٣].

** سبب نزول سورة الضحى :

اختلف العلماء في سبب نزول هذه السّورة على أربعة أقوال :

** القول الأول : ما أخرجه البخاري : عن جندب بن عبد الله ﷺ ، قال : احتبس جبريل ﷺ على النبي ﷺ ، فقالت امرأة من قريش : أبطأ عليه شيطانه ، فنزلت : ﴿ وَٱلضُّحَىٰ . وَٱلَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ . مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ﴾ [٤].

(١) النَّوْرُ : الزَّهْرُ الأبيض . ينظر : المعجم الوجيز لمجمع اللغة العربية (صـ ٦٣٩) .

(٢) السِّنَان : نَصْلُ الرُّمْحِ . ينظر : لسان العرب (٢٢٣/١٣) مادة « سنن » . والمُرَّانُ : بضم الميم ، الرماح الصُّلْبة اللَّدْنَةُ ، الواحدة : مُرَّانَةٌ . ينظر : مختار الصحاح لمحمد ابن أبي بكر الرازي (صـ ٢٦٠) ولسان العرب (٢٢٣/١٣ ، ٤٠٤) مادة « مرن » .

(٣) ينظر : أسرار ترتيب القرآن ، للإمام / جلال الدين عبد الرحمن السيوطي ــ ت ٩١١هـ ، تحقيق / عبد القادر أحمد عطا (صـ ١٦٠) دار الفضيلة ــ القاهرة ، بدون ، وروح المعاني للآلوسي (١٥٣/٣٠) .

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه : كتاب أبواب التهجد ، باب (٤) ترك القيام للمريض (٣٧٨/١) ح (١٠٧٣) .

وأخرج البخاري ــ أيضاً ــ عن جندب بن سفيان ﷺ ، قال : اشتكى رسول الله ﷺ فلم يقم ليلتين ، أو ثلاثاً ، فجاءت امرأة فقالت : يا محمد إني لأرجو أن يكون شيطانك قد تركك ، لم أره قربك منذ ليلتين أو ثلاثاً ، فأنزل الله ﷻ : ﴿وَٱلضُّحَىٰ . وَٱلَّيۡلِ إِذَا سَجَىٰ . مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ﴾ (١).

قال الحافظ ابن حجر : هي أم جميل العوراء بنت حرب ، أخت أبي سفيان ، وهي حمالة الحطب زوج أبي لهب (٢).

فعن زيد بن أرقم ﷺ ، قال : لما نزلت : ﴿ تَبَّتۡ يَدَآ أَبِي لَهَبٖ وَتَبَّ ﴾ إلى ﴿ وَٱمۡرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلۡحَطَبِ . فِي جِيدِهَا حَبۡلٞ مِّن مَّسَدِۭ﴾ { سورة المسد } . قال : فقيل لامرأة أبي لهب : إن محمداً قد هجاك ، فأتت رسول الله ﷺ وهو جالس في الملأ ، فقالت : يا محمد على ما تهجوني ؟ قال : فقال ﷺ : « إني والله ما هَجَوتُكِ ، ما هَجَاك إلا الله » . قال : فقالت : هل رأيتني أحمل حطباً ، أو رأيت في جيدي حبلاً من مسد ؟ ثم انطلقت فمكث رسول الله ﷺ أياماً لا ينزل عليه ، فأتته فقالت : يا محمد ، ما أرى صاحبك إلا وقد ودعك وقلاك ، فأنزل الله ﷻ : ﴿وَٱلضُّحَىٰ . وَٱلَّيۡلِ إِذَا سَجَىٰ . مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ﴾ (٣).

**** وإذا كانت هذه الروايات تخبر أن قائل ذلك ، امرأة من قريش ، وهي أم جميل ، فقد ورد في بعض الروايات أن قائل ذلك ، هم المشركون .**

فعن جُنْدَبٍ الْبَجَلِيِّ ﷺ ، قال : كنت مع النبي ﷺ في غار ، فَدَمِيَتْ أُصْبُعُهُ،

(١) أخرجه البخاري في صحيحه : كتاب التفسير ، باب تفسير سورة . والضحى . (٤/١٨٩٢) ح (٤٦٦٧) .

(٢) ينظر : فتح الباري (١/٣١٩) .

(٣) أخرجه الحاكم في المستدرك (٢/٥٧٣) ح (٣٩٤٥) وقال : هذا حديث صحيح كما حدثناه هذا الشيخ إلا أني وجدت له علة . ووافقه الذهبي . وقال الحافظ ابن حجر : رجاله ثقات . فتح الباري (٣/٩) .

فقال النبي ﷺ :

هَلْ أَنْت إلا إصْبَعٌ دَمِيت وفي سَبيل الله مَا لَقِيت ؟ (١)

قال : فأبطأ جبريل عليه ﷺ ، فقال المشركون : قد وُدِّع محمدٌ ، فأنزل الله تعالى : ﴿ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ﴾ (٢).

قال الحافظ ابن كثير : « وذكر أن إصبعه ﷺ دَمِيت ، وقوله هذا الكلام ــ الذي اتفق أنه موزون ــ ثابت في الصحيحين (٣). ولكن الغريب ههنا جعله سبباً لتركه القيام ، ونزوله هذه السورة » (٤).

**** ويمكن أن نجمع بين هذه الروايات المختلفة في تحديد القائل ، بأنه « لا مخالفة ؛ لأنهم قد يطلقون لفظ الجمع ويكون القائل أو الفاعل واحداً ، بمعنى أن الباقين راضون بما وقع من ذلك الواحد » (٥).**

(١) قَالَ الْمَازِرِيُّ : أَنْكَرَ بَعْض النَّاس كَوْن الرَّجَز شِعْراً لِوُقُوعِهِ من النبي ﷺ ، مع قوله تعالى : ﴿ وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِي لَهُۥٓۚ إِنۡ هُوَ إِلَّا ذِكۡرٞ وَقُرۡءَانٞ مُّبِينٞ ﴾ { يس : ٦٩ } ، وهو مذهب الأخفش ، واحتج به على فساد مذهب الخليل في أنه شعر ، وأجابوا عن هذا بأن الشعر هو ما قصد إليه ، واعتمد الإنسان أن يوقعه موزوناً مقفى يقصده إلى القافية ، ويقع في ألفاظ العامة كثير من الألفاظ الموزونة ، ولا يقول أحد إنها شعر ، ولا صاحبها شاعر . والنبي ﷺ لم يقصد بكلامه ذلك الشعر ، ولا أراده ، فلا يعد شعراً وإن كان موزوناً . ينظر : شرح النووي على صحيح مسلم (١٢/١١٩) .

(٢) أخرجه الترمذي في سننه : كتاب التفسير ، باب (٨١) ومن سورة الضحى (٥/٤٤٢) ح (٣٣٤٥) من حديث سُفْيَانُ ابْنُ عُيَيْنَةَ ، عَنْ الأَسْوَدِ بْنِ قَيْسٍ ، عَنْ جُنْدَبٍ الْبَجَلِيِّ . وقال الترمذي : « هذا حديث حسن صحيح ، وقد رواه شعبة والثوري ، عن الأسود بن قيس » .

(٣) ورد في الصحيحين ، واللفظ للبخاري : عن جندب بن سفيان ﷺ « أن رسول الله ﷺ كان في بعض المشاهد ، وقد دَمِيَتْ إِصْبَعُهُ ، فَقَالَ : هَلْ أَنْتِ إِلا إِصْبَعٌ دَمِيتِ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ مَا لَقِيتِ ؟ » . صحيح البخاري : كتاب الجهاد والسير ، باب (٩) من ينكب في سبيل الله (٣/١٠٣١) ح (٢٦٤٨) وصحيح مسلم : كتاب الجهاد والسير ، باب (٣٩) (٣/١٤٢١) ح (١٧٩٦) .

(٤) تفسير ابن كثير (٥/٥٢٣) .

(٥) فتح الباري (٨/٧١٠) . هذا ، وقد ورد في بعض الروايات أن قائل ذلك ، هي السيدة خديجة ــ

وقد أخرج البخاري : عن الأسود بن قيس ﷺ ، قال : سمعت جندباً البجلي ﷺ ، قال : قالت امرأة : يا رسول الله ، ما أرى صاحبك إلا أبطأك ، فنزلت : ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ﴾ (١)

قال الحافظ ابن حجر معلقاً على هذه الرواية : « وهذه المرأة فيما ظهر لي ، غير المرأة المذكورة في حديث سفيان ؛ لأن هذه المرأة عبرت بقولها : « صاحبك » ، وتلك عبرت بقولها :

« شيطانك » ، وهذه عبرت بقولها : « يا رسول الله » ، وتلك عبرت بقولها : « يا محمد » .

وسياق الأولى يشعر بأنها قالته تأسفاً وتوجعاً ، وسياق الثانية يشعر بأنها قالته تهكماً وشماتةً » (٢).

**** القول الثاني :**

أن سبب نزولها : « أنَّ جِرْواً (٣) دَخَلَ الْبَيْتَ ، وَدَخَلَ تَحْتَ السَّرِيرِ وَمَاتَ، فَمَكَثَ نَبِيُّ اللَّهِ ﷺ ، أَيَّاماً لا يَنْزِلُ عَلَيْهِ الْوَحْيُ ، فَقَالَ : يَا خَوْلَةُ مَا حَدَثَ فِي بَيْتِ رَسُولِ اللَّهِ ؟ جِبْرِيلُ لا يَأْتِينِي ، فَهَلْ حَدَثَ فِي بَيْتِ رَسُولِ اللَّهِ حَدَثٌ ؟ فَقُلْتُ: وَاللَّهِ

رضي الله عنها ــ ، كما روى الإمام الطبري في جامع البيان (٣٠/٢٣١ – ٢٣٢) . وعلق الحافظ ابن كثير على ما رواه الطبري بقوله : « حديث مرسل من هذين الوجهين ، ولعل ذكر خديجة ليس محفوظاً ، أو قالته على وجه التأسف والتحزن » . تفسير ابن كثير (٥/٥٢٣) .

(١) أخرجه البخاري في صحيحه : كتاب التفسير، باب (٤٤١) قوله : ﴿ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ﴾ (٤/١٨٩٢) ح (٤٦٦٨) .

(٢) ينظر : فتح الباري (٣/٩) .

(٣) قوله : « جِرواً » ، الْجَرْو بِكَسْرِ الْجِيمِ وَضَمِّهَا وَفَتْحِهَا ، ثَلاث لُغَات مَشْهُورَات ، وَهُوَ الصَّغِير مِنْ أَوْلاد الْكَلْب وَسَائِر السِّبَاع ، وَالْجَمْع أَجْرٍ وَجِرَاء ، وَجَمْع الْجِرَاء أَجْرِيَة . ينظر : شرح النووي على صحيح مسلم (١٤/٨٣) وحاشية السندي على سنن النسائي (٧/١٨٦) .

مَا أَتَى عَلَيْنَا يَوْمٌ خَيْرٌ مِنْ يَوْمِنَا . فَأَخَذَ ﷺ بُرْدَهُ فَلَبِسَهُ ، وَخَرَجَ ، فَقُلْتُ : لَوْ هَيَّأْتُ الْبَيْتَ ، وكَنَسْتُهُ ، فَأَهْوَيْتُ بِالْمِكْنَسَةِ تَحْتَ السَّرِيرِ ، فَإِذَا شَيْءٌ ثَقِيلٌ ، فَلَمْ أَزَلْ حَتَّى أَخْرَجْتُهُ ، فَإِذَا بِجِرْوٍ مَيِّتٍ ، فَأَخَذْتُهُ بِيَدِي ، فَأَلْقَيْتُهُ خَلْفَ الدَّارِ ، فَجَاءَ نَبِيُّ اللَّهِ تَرْعَدُ لَحْيَيْهِ ، وكَانَ إِذَا أَتَاهُ الْوَحْيُ أَخَذَتْهُ الرِّعْدَةُ ، فَقَالَ : يَا خَوْلَةُ ، دَثِّرِينِي ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ: ﴿ وَالضُّحَىٰ . وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ . مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ﴾ » (١).

قال الحافظ ابن حجر : « ووجدت في الطبراني ــ بإسناد فيه من لا يعرف ــ أن سبب نزولها : وجود جرو كلب تحت سريره ﷺ ، لم يشعر به ، فأبطأ عنه جبريل ﷺ لذلك .

وقصة إبطاء جبريل ﷺ بسبب كون الكلب تحت سريره مشهورة ، لكن كونها سبب نزول هذه الآية غريب، بل شاذ ، مردود بما في الصحيح، والله أعلم»(٢).

**** القول الثالث : أن سبب نزولها : فترة الوحي عند ابتداء نزوله .**

أخرج الطبري عن ابن عباس ، قال : « لما نزل على رسول الله ﷺ القرآن، أبطأ عنه جبريل ﷺ أياماً ، فتغير ﷺ بذلك ، فقالوا : ودعه ربه وقلاه ، فأنزل الله : ﴿ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ﴾ » (٣). وفي رواية من طريق آخر قال : « فتر الوحي حتى شق ذلك على النبي ﷺ وأحزنه ، فقال : لقد خشيت أن يكون صاحبي قلاني ، فجاء جبريل ﷺ بسورة ﴿ وَالضُّحَىٰ ﴾ (٤).

---

(١) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير (٢٤/٢٤٩) ح (٦٣٦) عن حفص بن سعيد القرشي ، قال : حدثتني أمي عن أمها ، وكانت خادم رسول الله ﷺ . قال الهيثمي : .وأم حفص لم أعرفها . . مجمع الزوائد (٧/١٣٨) .

(٢) فتح الباري (٨/٧١٠) .

(٣) جامع البيان للطبري (٣٠/٢٣١) .

(٤) من طريق إسماعيل مولى آل الزبير . فتح الباري (٨/٧١٠) . وينظر : جامع البيان للطبري (٢٩/١٤٣) .

وفي رواية : « وَفَتَرَ الْوَحْي ، فقالوا : لو كان من عند الله لتابع ، ولكن الله قلاه ، فأنزل الله : ﴿ وَٱلضُّحَىٰ ﴾ و﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ ﴾ بكمالهما .

قال الحافظ ابن حجر بعد ذكره لهذه الروايات : « وكل هذه الروايات لا تثبت ، والحق أن الفترة المذكورة في سبب نزول : ﴿ وَٱلضُّحَىٰ ﴾ ، غير الفترة المذكورة في ابتداء الوحي ، فإن تلك دامت أياماً ، وهذه لم تكن إلا ليلتين أو ثلاثاً ، فاختلطتا على بعض الرواة » [١].

** **القول الرابع** : أن سبب نزولها : أن اليهود قد طلبوا من المشركين أن يسألوا النبي ﷺ عن أصحاب الكهف ، وذي القرنين ، والرّوح ، ووعدهم بالجواب ، ولم يستثن [٢]، فأبطأ عليه جبريل عليه السلام اثنتي عشرة ليلة ، أو خمس عشرة ليلة ، أو أكثر ، فضاق صدره ﷺ ، وتكلم المشركون ، فنزل جبريل عليه السلام بسورة ﴿وَٱلضُّحَىٰ ﴾ ، وبجواب ما سألوا ، وبقوله تعالى : ﴿ وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّى فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا . إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَٱذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَىٰٓ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّى لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشَدًا ﴾ { الكهف : ٢٣ – ٢٤ } [٣].

قال الحافظ ابن حجر : « وذكر سورة الضحى هنا بعيد ، لكن يجوز أن يكون الزمان في القصتين متقارباً ، فضم بعض الرواة إحدى القصتين إلى الأخرى، وكل منهما لم يكن في ابتداء البعث ، وإنما كان بعد ذلك بمدة ، والله أعلم » [٤].

---

(١) ينظر : فتح الباري (٨/٧١٠) .

(٢) أي : لم يقل : إن شاء الله .

(٣) ينظر : السيرة النبوية لابن هشام (٢/١٤٠) ولباب التأويل في معاني التنزيل للخازن (٧/٢٥٧) وفتح الباري (٨/٧١٠) .

(٤) فتح الباري (٨/٧١٠) .

** **وخلاصة القول** : أن هذه الروايات قد اتفقت على أن سبب نزول هذه السورة ، هو حصول فترة في توالي نزول الوحي على النبي ﷺ ، وإن اختلفت في تحديد سبب الانقطاع ووقته ، فَظُن أو توهم أو قيل : إن الله قد ودعه وقلاه ، فأنزل الله هذه السورة لحكم جليلة – سأذكر بعضاً منها – **إلا أن الراجح من هذه الأقوال، هو القول الأول** ، لأنه ورد في الصحيح ، فهو أولى من غيره .

** **الحكمة من نزول هذه السورة المباركة :**

وعلى هذا ، فنزول هذه السورة لحكم ، منها :

(١) إبطال دعوى المشركين : إن الله قد ودعه وقلاه . فانقطاع الوحي تلك الفترة لم يكن عن ترك ولا عن كره .

(٢) إثبات أن القرآن العظيم من عند الله ﷻ ، إذ لو كان النبي ﷺ تقوله من عند نفسه ، كما قال المشركون : ﴿ أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُۥ ۚ بَل لَّا يُؤْمِنُونَ ﴾ { الطور : ٣٣ } ، لما انقطع .

وأقسم ﷻ على أنه من عنده ﷻ فقال : ﴿ فَلَآ أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ . وَمَا لَا تُبْصِرُونَ . إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ . وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ . وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ . تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ . وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ . لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ . ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ . فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَٰجِزِينَ . وَإِنَّهُۥ لَتَذْكِرَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ . وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنكُم مُّكَذِّبِينَ . وَإِنَّهُۥ لَحَسْرَةٌ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ . وَإِنَّهُۥ لَحَقُّ ٱلْيَقِينِ . فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴾ { الحاقة : ٣٨ – ٥٣ } .

(٣) إظهار مكانة النبي ﷺ عند ربه ﷻ ، فهو ﷺ محل العناية الربانية ، وهو ﷺ كريم المكانة ، جليل القدر ، رفيع المنزلة .

(٤) زيادة تشويق الرسول ﷺ إلى الوحي ، حتى يكتمل أُنسه وفرحه بنزوله

، فتطمئن نفسه ، وينشرح صدره ، فعَنْ ابنِ عبَّاسٍ ــ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُما ــ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لِجِبْرِيلَ عليه السلام : « مَا يَمْنَعُكَ أَنْ تَزُورَنَا أَكْثَرَ مِمَّا تَزُورُنَا » ؟ فَنَزَلَتْ : ﴿ وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ ۖ لَهُۥ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَٰلِكَ ﴾ { مريم : ٦٤ } (١).

قال الإمام محمد عبده : « إن من المحقق ــ وهو الذي يرشد إليه أسلوب السورة الشريفة ــ أن الله أراد أن يلقي الطمأنينة في نفسه ﷺ ، بتأكيد تلك الأخبار التي ذكرها واحداً بعد الآخر ، وأن يستدل له على أن هذه الأخبار لا ريب فيها بما سبق من فضل الله عليه .

فالذي يعطف عليه بعنايته فيما سبق، لا يزال يؤيده بتلك العناية فيما يلحق».

إلى أن قال : « ومن أين كان للمشركين أن يعلموا فترة الوحي ، فيقولوا أو يطعنوا ، ولكن ذلك كان شوق النبي ﷺ إلى مثل ما رأى وما فهم عن الله ، وما ذاق من حلاوة الاتصال بوحيه . وكل شوق يصحبه قلق ، وكل قلق يشوبه خوف ، وهو ﷺ بشر يعلو به عن البشر الوحي وحده ، كما ذكره الله تعالى في مواضع كثيرة من الكتاب ، نحو قوله تعالى : ﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَٱسْتَقِيمُوٓا۟ إِلَيْهِ وَٱسْتَغْفِرُوهُ ۗ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ ﴾ { فصلت: ٦}»(٢).

وقال الشهيد سيد قطب : « الوحي ولقاء جبريل والاتصال بالله ، كانت هي زاد الرسول ﷺ في مشقة الطريق ، وسقياه في هجير الجحود ، وروْحه في لأواء (٣) التكذيب .

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه : كتاب التفسير ، باب (٢٢٢) ﴿ وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ ﴾ (١٧٦٠/٤) ح (٤٤٥٤) .

(٢) تفسير جزء عم ، للإمام / محمد عبده (صـ ٨٣) .

(٣) اللأواء : ، المشقة والشدّة ، . لسان العرب (٢٣٨/١٥) مادة ، لأي ، .

وكان ﷺ يحيا بها في هذه الهاجرة المحرقة التي يعانيها في النفوس النافرة الشاردة العصية العنيدة . ويعانيها في المكر والكيد والأذى المصبوب على الدعوة ، على الإيمان ، وعلى الهدى من طغاة المشركين .

فلما فتر الوحي ، انقطع عنه الزاد ، وانحبس عنه الينبوع ، واستوحش قلبه من الحبيب ، وبقي للهاجرة وحده ، بلا زاد ، وبلا ري . وبغير ما اعتاد من رائحة الحبيب الودود . وهو أمر أشد من الاحتمال من جميع الوجوه . عندئذ نزلت هذه السورة. نزل هذا الفيض، من الود والحب ، والرحمة والإيناس ، والقربى والأمل، والرضى والطمأنينة واليقين » (١)

* * *

(١) في ظلال القرآن (٣٩٢٥/٦) .

ما حوته السورة من موضوعات وأهداف

قبل الحديث عن موضوعات وأهداف سورة الضحى لابد من التنبيه على أن لكل سورة من سور القرآن العظيم ، بل لكل آية من آياته هدفاً تسعى إليه ، وغاية تجرى إلى تحقيقها !!

يقول الشهيد سيد قطب : « إن لكل سورة من سور القرآن شخصيتها الخاصة ، وملامحها المميزة ، ومحورها الذي تشد إليه موضوعاتها جميعاً ، ومن مقتضيات الشخصية الخاصة أن تتجمع الموضوعات في كل سورة وتتناسق حول محورها في نظام خاص بها ، تبرز فيه ملامحها ، وتتميز به شخصيتها ، كالكائن الحي المميز السمات والملامح، وهو- مع هذا- واحد من جنسه على العموم!!»[١].

ويقول الشيخ محمد المدني : « إن في كل سورة من سور القرآن روحاً يسري في آياتها ، ويسيطر على مبادئها وأحكامها وتوجيهاتها وأسلوبها » [٢].

وعند النظر في آيات ودروس هذه السورة المباركة ، نجد أنها تتحدث عن النبي الأعظم ﷺ ، فهي تتناول شخصيته ﷺ ، وما حباه الله من الفضل والإنعام في الدنيا والآخرة ، لشكر ربه ومولاه على تلك النعم الجليلة .

**** وقد اشتملت هذه السورة الكريمة على مجموعة من المقاصد والأهداف :**

(١) ابتدأت السورة الكريمة بالقسم الإلهي على أن الله ﷻ ما ترك رسوله

(١) في ظلال القرآن (٥٥٥/١) .

(٢) المجتمع المثالي كما تنظمه سورة النساء ، للشيخ / محمد محمد المدني (صـ ٧) الدار المصرية للنشر والتوزيع ، ط / ١٤١٠هـ - ١٩٩٠م .

ولا أبغضه ، ولا هجره ، وإنما هو محل العناية الربانية ، فهو ﷺ عند ربه ﷻ كريم الشأن والمكانة ، جليل القدر ، رفيع المنزلة ، قال تعالى : ﴿ وَٱلضُّحَىٰ . وَٱلَّيۡلِ إِذَا سَجَىٰ . مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ . وَلَلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ لَّكَ مِنَ ٱلۡأُولَىٰ ﴾ .

(٢) جاءت السورة بما يثلج صدر الرسول ﷺ ، ويقر عينه ، فقد بشرته بالعطاء الجم العظيم من ربه ﷻ ، في الدنيا والآخرة ، فسيعطيه ويمنحه من أنواع الكرامات ما فيه رضاه ، قال تعالى : ﴿ وَلَسَوۡفَ يُعۡطِيكَ رَبُّكَ فَتَرۡضَىٰٓ ﴾ .

(٣) عددت السورة نعم الله ﷻ على نبيه ﷺ منذ صغره حتى كبره ، ليكمل إيناسه ، ويزيد اطمئنانه ، ﴿ أَلَمۡ يَجِدۡكَ يَتِيمٗا فَـَٔاوَىٰ . وَوَجَدَكَ ضَآلّٗا فَهَدَىٰ . وَوَجَدَكَ عَآئِلٗا فَأَغۡنَىٰ ﴾ .

(٤) ختمت السورة بوصية النبي ﷺ بفضائل ثلاث ، مقابل تلك النعم الثلاث: أن يرعى اليتيم ويؤويه ، ويعطف على السائل والمحتاج ويعطيه ، وأن يحدث بنعم ربه ﷻ عليه ، شكراً له ﷻ ، وتعليماً لعباده ، حتى يكون على الجادة وسواء الصراط ، ﴿ فَأَمَّا ٱلۡيَتِيمَ فَلَا تَقۡهَرۡ . وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنۡهَرۡ . وَأَمَّا بِنِعۡمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثۡ ﴾ . « وهو ختمٌ يتناسق فيه جمال اللفظ مع روعة البيان » [١].

« إن السورة بمجموعها تربي سيد الخلق ﷺ ، الأسوة العليا ، ولذلك فهي من جانب خطاب لكل إنسان ، فيما ليس من خصوصياته ﷺ » [٢].

يقول صاحب الظلال : « هذه السورة بموضوعها ، وتعبيرها ، ومشاهدها ، وظلالها وإيقاعها ، لمسة من حنان ، ونسمة من رحمة ، وطائف من ود ، ويد حانية تمسح على الآلام والمواجع ، وتنسم بالروح والرضى والأمل . وتسكب البرد

(١) صفوة التفاسير (٥٤٤/٣) .

(٢) الأساس في التفسير لسعيد حوى (٦٥٦٧/١١) .

والطمأنينة واليقين .

إنها كلها خالصة للنبي ﷺ ، كلها نجاء له من ربه ، وتسرية وتسلية وترويح وتطمين .

كلها أنسام من الرحمة وأنداء من الود ، وألطاف من القربى ، وهدهدة للروح المتعب ، والخاطر المقلق ، والقلب الموجوع »[1].

✿ ✿ ✿ ✿ ✿ ✿ ✿

(١) في ظلال القرآن (٦/٣٩٢٥) .

بسم الله الرحمن الرحيم

قال تعالى : ﴿ وَٱلضُّحَىٰ ۝١ وَٱلَّيۡلِ إِذَا سَجَىٰ ۝٢ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ۝٣ وَلَلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ لَّكَ مِنَ ٱلۡأُولَىٰ ۝٤ وَلَسَوۡفَ يُعۡطِيكَ رَبُّكَ فَتَرۡضَىٰٓ ۝٥ أَلَمۡ يَجِدۡكَ يَتِيمٗا فَـَٔاوَىٰ ۝٦ وَوَجَدَكَ ضَآلّٗا فَهَدَىٰ ۝٧ وَوَجَدَكَ عَآئِلٗا فَأَغۡنَىٰ ۝٨ فَأَمَّا ٱلۡيَتِيمَ فَلَا تَقۡهَرۡ ۝٩ وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنۡهَرۡ ۝١٠ وَأَمَّا بِنِعۡمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثۡ ۝١١ ﴾ .

✿ ✿ ✿ ✿ ✿ ✿ ✿

** معاني المفردات :

** ﴿ وَٱلضُّحَىٰ ﴾ : **الضحى** : وقت ارتفاع الشمس عن أفق مشرقها وظهور شعاعها ، وهو الوقت الذي ترتفع فيه الشمس متجاوزة مشرقها بمقدار ما يخيل للناظر أنه طول رمح ، إلى ما قبل الزوال بقليل [1]. **وقيل : المراد بالضحى هنا : النهار كله .**

وسيأتي الحديث عن ذلك بالتفصيل ضمن التحليل والاستنتاج .

** ﴿ إِذَا سَجَىٰ ﴾ : سكن واستوت ظلمته [2]. يقال: سجا الليل ، يسجو سَجْواً ــ بفتح فسكون ــ ، وسُجُوّاً ــ بضمتين وتشديد الواو : إذا سكن وهدأ وأسدل ظلامه على الكون .

ويقال : تسجَّى فلان بملابسه ، إذا غطى بها جميع جسده ، ومنه قولهم : سُجِّى الميت تسجية ، إذا غطى بكفنه . وبحر ساج : أي ساكن [3]. وسأذكر أقوال

(١) ينظر : المفردات للراغب (صـ ٢٩٦) مادة « ضحى » ، والتحرير والتنوير (٣٠/٣٦٦) .

(٢) ينظر : تفسير غريب القرآن للسجستاني (صـ ١٩٣) وغريب القرآن لابن قتيبة (صـ ٥٣١) .

(٣) ينظر : معاني القرآن للفراء (٣/٢٧٣) ولسان العرب (١٤/٣٧٠) مادة « سجا » ، والتحرير والتنوير (٣٠/٣٩٥) .

المفسرين في تفسيرها عند تحليل الآية .

** ﴿ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ ﴾ : ما تركك ربك ، ومنه قولهم : استودعك الله غير مُودَّع ، أي : غير متروك ، وبهذا سمى الوداع ، لأنه فراق ومتاركة [١].

قال الزمخشري : قوله : ﴿ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ ﴾ ، جواب القسم ، ومعناه : ما قطعك قطع المودع . وقرئ بالتخفيف [٢]، يعني ما تركك .

فقد استغنوا عن وَذَرَ، ووَدَعَ، بقولهم: ترك، ولكنها لغة قليلة الاستعمال[٣].

قال سيبويه : « كما أن يَدَع ويَذَر ، على وَدَعت ، ووذرت ، وإن لم يستعمل » [٤].

والتوديع مبالغة في الودع ، لأنّ من ودّعك مفارقاً ، فقد بالغ في تركك [٥].

** ﴿ وَمَا قَلَىٰ ﴾ : وما أبغضك منذ أحبك [٦].

قال العلامة الراغب : « القِلَى : شدة البغض ، يقال : قَلاهُ يَقْلِيهِ ، ويَقْلُوهُ ، قال تعالى : ﴿ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ﴾ ، وقال [٧]: ﴿ قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُم مِّنَ

(١) ينظر : تفسير غريب القرآن للسجستاني (صـ ١٩٣) وبهجة الأريب لابن التركماني (٢٥٠/٢) .

(٢) هي قراءة شاذة ، قرأ بها : عمر بن الخطاب ، وأنس ، وعروة بن الزبير، وابنه هشام ، وأبو حيوة ، وأبو بحرية ، وأبو العالية ، وابن يعمر ، وابن أبي عبلة . ينظر : المحتسب في تبيين وجوه شواذ القراءات ، لابن جني (٣٦٤/٢) وزاد المسير (١٥٧/٩) وتفسير البحر المحيط (٤٨٠/٨) .

(٣) ينظر : المحتسب لابن جني (٣٦٤/٢) والتبيان في إعراب القرآن لأبي البقاء (٢٨٧/٢) .

(٤) الكتاب لسيبويه . أبي بشر عمرو بن عثمان بن قَنبر ـ ت ١٨٠هـ ، تحقيق / عبد السلام محمد هارون (١٠٩/٤) دار الكتب العلمية ، ط / الثالثة ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م .

(٥) ينظر : الكشاف للزمخشري (٧٧٠/٤) .

(٦) ينظر: تفسير غريب القرآن للسجستاني (صـ ١٩٣) وتفسير المشكل من غريب القرآن لمكي بن أبي طالب (صـ ١٢٢) .

(٧) هذا الكلام صدر على لسان نبي الله لوط عليه السلام ، والمعنى : أن لوطاً عليه السلام يخبر قومه أنه يبغض ما هم عليه من فاحشة اللواط بغضاً شديداً .

ٱلْقَالِينَ ﴾ { الشعراء : ١٦٨ } » [١].

** ﴿ يَتِيمًا ﴾ : اليُتمُ هو : انقطاع الصبي عن أبيه قبل بلوغه ، وفي سائر الحيوانات من قبل أمه ، وقيل : اليُتْمُ في الطير من قِبَل الأب والأُمِّ ، لأنهما كِلَيْهِما يَزُقّانِ فِراخَهما [٢].

وجمعه أيتامٌ ويَتامى ويَتَمةٌ ، وكل منفرد يتيم ، يقال : دُرَّةٌ يَتِيمةٌ ، تنبيهاً على أنه انقطع مادتها التي خَرجت منها ، وقيل : بيت من الشِّعْر يتيم ، أي : مفرد لا نظير له ، تشبيهاً بالدرة اليتيمة [٣].

قال العلامة ابن منظور : « اللَّطِيمُ » الذي يموت أبواه ، و« العَجِيُّ » [٤] الذي تموت أُمُّه ،

و« اليتيمُ » الذي يموت أبوه [٥].

** ﴿ فَآوَىٰ ﴾ : جعل لك مأوى تأوي إليه ، وضمك إلى من يرعاك .

قال العلامة ابن عاشور : « الإيواء : مصدر أوَى إلى البيت ، إذا رجع إليه ، فالإيواء : الإرجاع إلى المسكن ، فهمزته الأولى همزة التعدية ، أي : جعله آوياً ، وقد أطلق الإيواء على الكفالة وكفاية الحاجة ، مجازاً ، أو استعارة .

فالمعنى : أنشأك على كمال الإدراك والاستقامة ، وكنتَ على تربية كاملة ،

(١) المفردات في غريب القرآن (صـ ٤١٢) مادة . قلى . .

(٢) الزُّقّ : مصدر زَقَّ الطائرُ الفَرخَ ، يزُقُّه زَقّاً وزَقْزَقَه : أطعمه بفيه . ينظر : لسان العرب (١٤٣/١٠) مادة . زقق . .

(٣) ينظر : المفردات في غريب القرآن (صـ ٥٥١) ولسان العرب (٦٤٥/١٢) مادة . يتم . .

(٤) العَجِيُّ : هو الذي لا لَبن لأمّه ، أو مَنَعته اللَّبنَ وغَذَّيته بالطعام ، أو ماتَتْ أُمّه فعُلِّل بلبَنَ غيرها ، أو بشيء آخر ، فأورثَه ذلك وَهناً . ينظر : الفائق في غريب الحديث للزمخشري (٣٩٥/٢) والنهاية لابن الأثير (١٨٨/٣) مادة . عجا . .

(٥) لسان العرب (٥٤٣/١٢) مادة . لطم . .

مع أن شأن الأيتام أن ينشأوا على نقائص ، لأنهم لا يجدون من يُعنى بتهذيبهم وتعهدِ أحوالهم الخُلقية .

وفي الحديث : « أدبني ربي فأحسن تأديبي » [١].

فكان تكوين نفسه الزكية على الكمال ، خيراً من تربية الأبوين » [٢].

** ﴿ ضَآلًّا ﴾ : **أصل الضّلال** : « عدم الاهتداء إلى الطريق الموصل إلى مكان مقصود ، سواء سلك السائر طريقاً آخر يبلغ إلى غير المقصود ، أم وقف حائراً لا يعرف أيَّ طريق يسلك ، وهو المقصود هنا » [٣].

والضلال هنا بمعنى الغفلة ، وسيأتي لذلك مزيد في التحليل والاستنتاج .

** ﴿ عَآئِلًا ﴾ : فقيراً ، من عَالَ الرَّجلُ ، إذا افتقر ، يَعِيل عَيْلَةً : فهو عائلٌ . والفقر يسمى عيلة ، قال تعالى : ﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦٓ إِن شَآءَ ﴾ { التوبة : ٢٨ } .

وقيل : ﴿ عَآئِلًا ﴾ ، أي : ذا عيال ، من عال يعول عولاً وعيالة : كثر عياله [٤].

قال ابن قتيبة : العائل الفقير ، كان له عيال ، أو لم يكن ، يقال : عال

(١) **قال ابن تيمية** : معناه صحيح ، ولكن لا يعرف له إسناد ثابت . مجموع الفتاوى (٣٧٥/١٨) ، وأيده السخاوي ، والسيوطي . ينظر : كشف الخفاء (٧٢/١) وضعفه الشيخ / محمد ناصر الدين الألباني في السلسلة الضعيفة (١٧٢/١) مكتبة المعارف ــ الرياض ، بدون .

(٢) التحرير والتنوير (٣٩٩/٣٠) .

(٣) المرجع السابق (٣٩٩/٣٠) .

(٤) ينظر : معاني القرآن للفراء (٢٧٤/٣) وتفسير المشكل من غريب القرآن ، لمكي بن أبي طالب (صـ ١٢٢) والمفردات للراغب (صـ ٣٥٧) مادة « عيل » ، وبهجة الأريب في بيان ما في كتاب الله العزيز من الغريب (٢٥٠/٢) .

الرجل ، إذا افتقر ، وأعال ، إذا كثر عياله [١].

وأصل العائل : الإنسان الذي له عائلة ، لا يستطيع الإنفاق عليها ، ثم أطلق هذا اللفظ على الإنسان الفقير ، حتى ولو لم تكن له عائلة أو أسرة .

**** والأول أرجح ، لما يأتي :**

(١) قراءة عبد الله بن مسعود ﷺ : « ووجدك عديماً » [٢].

وهي وإن كانت قراءة شاذة ، إلا أنه يعمل بها على قول الجمهور [٣]، تنزيلاً لها منزلة خبر الواحد ، فتفسر بها القراءة المتواترة ، ويستنبط منها الأحكام الشرعية ، ويرجح بين الأقوال المختلفة على أساسها ، ويستدل بها على وجه من وجوه اللغة العربية ، إلا إذا عارضها دليل أقوى منها ، فالعمل للدليل [٤].

(٢) لأن الرسول ﷺ لم يكن ذا عيال في أول أمره [٥].

(٣) لأن « عال » الثلاثي ، بمعنى : افتقر ، و« أعال » الرباعي ، بمعنى:

(١) ينظر : غريب القرآن لابن قتيبة (صـ ٥٣١) .

(٢) قراءة عبد الله بن مسعود ، جمع الدكتور / محمد أحمد خاطر (صـ ١٧٤) وينظر : معاني القرآن للفراء (٢٧٤/٣) وقال : « والمعنى واحد .. أي: معنى : عائلاً ، وعديماً .. ومختصر في شواذ القراءات من كتاب البديع لابن خَالَوَيْه (صـ ١٧٥) .

(٣) ينظر : مُنْتهى الوصول والأمل في علمي الأصول والجدل ، للإمام / أبي عمرو عثمان بن عمر بن أبي بكر المالكي ، المعروف بابن الحاجب ــ ت ٦٤٦هـ (صـ ٤٦ - ٤٧) دار الكتب العلمية ــ بيروت ، ط / الأولى ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م ، وشرح مختصر الروضة ، للعلامة / نجم الدين أبي الرّبيع سليمان بن عبد القوي الطُّوفي ــ ت ٧١٦هـ ، تحقيق / د . عبد الله بن عبد المحسن التركي (٢٥/٢) مؤسسة الرسالة ــ بيروت ، ط / الأولى ١٤١٠هـ - ١٩٩٠م ، والبحر المحيط في أصول الفقه (٤٧٥/١) والإتقان للسيوطي (٢١٩/١) .

(٤) ينظر : البحر المحيط في أصول الفقه للزركشي (٤٧٩/١) والإتقان في علوم القرآن للسيوطي (٢١٨/١) وفي رحاب القرآن الكريم ، للدكتور / محمد سالم محيسن (٤٣٤/١) محمد سالم محيسن ــ مكتبة الكليات الأزهرية ــ القاهرة ، ط / ١٤٠٠هـ - ١٩٨٠م .

(٥) ينظر : تفسير البحر المحيط (٤٨٢/٨) وروح المعاني (١٦٣/٣٠) .

كثر عياله .

قال العلامة الراغب : « يقال : عَالَ الرَّجلُ ، إذا افتقر ، يَعِيل عَيْـلَةً : فهو عائلٌ .

وأما « أعَالَ » إذا كثر عياله ، فمن بنات الواو » [١].

** ﴿ تَقْهَر ﴾ : تذله وتحقره ، أو تغلبه وتظلمه [٢].

و« القهر هو : الغلبة والتذليل معاً ، ويستعمل في كل واحد منهما ، قال تعالى : ﴿ وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴾ { الأنعام : ١٨ } ، وقال: ﴿ وَهُوَ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّٰرُ ﴾ { الرعد : ١٦ } ، وقال : ﴿ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَٰهِرُونَ ﴾ {الأعراف : ١٢٧ } ، وقال : ﴿ فَأَمَّا ٱلْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ﴾ ، أي : لا تُذِلْ » [٣].

**﴿ تَنْهَر ﴾ : تزجر [٤]. فإما أعطيته ، وإما رددته رداً ليناً [٥].

قال العلامة الشوكاني: « يقال: نهره، وانتهره: إذا استقبله بكلام يزجره، فهو نهى عن زجر السائل والإغلاظ له، ولكن يبذل له اليسير، أو يرده بالجميل»[٦].

**﴿ فَحَدِّث ﴾: « التحديث: الإخبار، أي: أخْبِر بما أنعم الله ﷻ عليك، اعترافاً بفضله ، وذلك من الشكر » [٧].

* * *

(١) المفردات للراغب (صـ ٣٥٧) مادة . عيل . .

(٢) ينظر : تفسير غريب القرآن للسجستاني (صـ ١٩٣) وجامع البيان للطبري (٢٣٣/٣٠) .

(٣) المفردات في غريب القرآن (صـ ٤١٥) مادة . قهر . .

(٤) تفسير غريب القرآن للسجستاني (صـ ١٩٣) .

(٥) معاني القرآن للفراء (٢٧٥/٣) .

(٦) فتح القدير (٤٥٩/٥) .

(٧) التحرير والتنوير (٤٠٣/٣٠) .

** المعنى العام :

~~~~~~~~~~

يقسم الله ﷻ بالنهار إذا انتشر ضياؤه بالضحى ، وهو الوقت الذي ترتفع فيه الشمس ، ويتم إشراقها ، ويأخذ الناس في النشاط والحركة ، وبالليل إذا سكن وهجع فيه الناس بعد عناء العمل ، على اعتناء الله برسوله ﷺ ، فقال : ﴿ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ﴾ ، أي : ما تركك ربك منذ اختارك واصطفاك ، ولا أهملك منذ رباك ورعاك ، بل لم يزل يربيك أحسن تربية ، ويعليك درجة بعد درجة .

وما أبغضك منذ أحبك واجتباك ، فأنت لديه رفيع المكانة ، جليل القدر .

والمراد ما قطع الله ﷻ عنك وحيه ــ أيها الرسول الكريم ــ ، وما كرهك ، وهذا رد بليغ على المشركين الذين زعموا : أن الله ﷻ قد ترك نبيه وأبغضه ، كما ورد في سبب النزول .

فهذه حال الرسول ﷺ الماضية والحاضرة ، أكمل حال وأتمها ، محبة الله له واستمرارها ، وترقيته في درج الكمال ، ودوام اعتناء الله به .

وأما حاله المستقبلة ، فقد بشره ﷻ ببشارتين عظيمتين ، قد بلغتا الدرجة العليا في السمو والرفعة ، فقال ﷻ : ﴿ وَلَلْـَٔاخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ ٱلْأُولَىٰ . وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ ﴾ ، أي : وللدار الآخرة ، وما أعده الله لك فيها ، من نعيم لا يحيط به وصف ، خير لك من دار الدنيا ، التي أعطيناك فيها من نبوة ، وكرامة ومنازل عالية ، وخلق كريم .

أو أن المعنى : وللأحوال الآتية خير لك من الماضية ، كأنه ﷻ وعده بأنه سيزيده كل يوم عزاً إلى عزٍ ، ومنصباً إلى منصبٍ .

أو أن خيرات الدنيا مشوبة بالآفات والنقص والانقطاع ، ولذات الآخرة كثيرة خالصة كاملة دائمة .
~~~~~~~~~~

فلم يزل ﷻ يصعد في درج المعالي ، ويمكن له الله دينه ، وينصره على أعدائه ، ويسدد له أحواله ، حتى مات ، وقد وصل إلى حال لا يصل إليها الأولون والآخرون ، من الفضائل والنعم ، وقرة العين ، وسرور القلب .

ثم بعد ذلك ، لا تسأل عن حاله في الآخرة ، من تفاصيل الإكرام ، وأنواع الإنعام ، ولهذا قال : ﴿ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ ﴾ ، وهذا أمر لا يمكن التعبير عنه بغير هذه العبارة الجامعة الشاملة .

وهو وعد من الله ــ جل وعلا ــ مؤكد ، بأنه سيعطي نبيه ﷺ ما يرضيه في الدنيا وفي الآخرة .

« **ولسوف يعطيك ربك** » من فواضل نعمه ، عطاءً جزيلاً ، في الدنيا والآخرة ، حتى يحصل لك الإرضاء التام ، ويتحقق ما تصبو إليه نفسك .

أما في الدنيا ، فهو النصر العظيم ، والفتح المبين ، وكمال الدين ، وإعلاء كلمة الحق ، والتمكين في الأرض ، وظهور أمة الإسلام .

وأما في الآخرة ، فهو الثواب ، والحوض ، والمقام المحمود ، والشفاعة لأمتك ، وأن لا يبقى أحد من أمته من أهل التوحيد في النار ، والوسيلة ، والدرجة الرفيعة ، التي لا تكون لأحد سواه ﷺ . وبذلك ترضى رضاء تاماً بما أعطاك الله ﷻ من نعم ومنن .

وإذا أعطى الله ﷻ العبد في الآخرة شيئاً يرضيه ، فذلك دليل على أن الله ﷻ قد رضي عن هذا العبد ، لأن الله ــ جل وعلا ــ لا يُرضي إلا من رضي عنه، ولا يكرم إلا من أطاعه ، وأما من عصاه فإن الله ﷻ لا يكرمه ، بل يهينه : ﴿وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ﴾ { الحج : ١٨ } .

** **ثم عدد ﷻ نعمه ومننه على رسوله ﷺ ، تقوية لقلبه ، ووعداً له بدوام نعمه** ، ليوقن أن الله معه وله ، وأنه ما تركه ولن يتركه ، وحتى تنتهي

فرحة المشركين ببطء الوحي ، وتأخره بضعة أيام ، فقال : ﴿ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ . وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ . وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغْنَىٰ ﴾ .

والمعنى : لقد كنت ــ أيها الرسول الكريم ــ يتيماً ، حيث مات أبوك وأنت في بطن أمك ، فآواك الله ﷻ بفضله وكرمه ، وتعهدك برعايته وحمايته وعصمته ، وضمك إلى جدك عبد المطلب ، ليقوم بكفالتك ، ومن بعده كفلك عمك الشقيق الشفيق أبا طالب ، حيث تولى رعايتك والدفاع عنك قبل الرسالة وبعدها ، إلى وفاته ، فكان لك أباً رحيماً ، وعماً كريماً ، وحصناً منيعاً .

** **وقوله تعالى : ﴿ وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ ﴾ ، بيان لنعمة أخرى أنعم ﷻ بها على نبيه ﷺ .**

والمعنى : وجدك غافلاً عن أحكام الشرائع ، حائراً في معرفة أصح العقائد ، لا تدري ما الكتاب ولا الإيمان ، فعلمك ما لم تكن تعلم ، وأنزل عليك القرآن العظيم ، ووفقك لأحسن الأعمال .

** **ثم حدثه ﷻ عن نعمة ثالثة من نعمه تعالى عليه ﷺ، فقال: ﴿ وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغْنَىٰ ﴾ .**

والمعنى : وقد كنت ــ أيها الرسول الكريم ــ فقيراً ، حيث مات أبوك دون أن يترك لك مالاً كثيراً ، ونشأت في كنف جدك ثم عمك ، وأنت على هذه الحال ، ثم أغناك الله ﷻ **بفضله وكرمه بنوعين من الغنى :**

أولهما – وهو الأعظم – : هو غنى النفس ، بأن منحك نفساً عفيفةً قانعةً بما أعطاك ﷻ من رزق ، حتى ولو كان كفافاً .

وثانيهما : هو الغنى المادي عن الاحتياج إلى الناس ، بما أجراه على يديك من الربح في التجارة ، وبما وهبتك زوجك خديجة ــ رضي الله عنها ــ من مالها ، فعشت مستور الحال ، غير محتاج إلى من ينفق عليك .

وهكذا نجد الآيات الكريمة تبين لنا : أن من فضل الله ﷻ على نبيه ﷺ ، أنه آواه في يتمه وصغره ، وهداه من ضلاله وحيرته ، وأغناه بعد فقره وحاجته .

هذه ثلاث منن إلهيّة ، وما أعظمها ، والمنة تتطلب شكراً ، والله يزيد على الشكر ، ومن هنا أرشد الله تعالى رسوله ﷺ إلى شكر تلك النعم ، وأداء حقوقها ، ليزيده عليها ، فقال : ﴿ فَأَمَّا ٱلْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ . وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنْهَرْ .وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴾ .

والمعنى : إذا كان الأمر كما أخبرتك ، من أنك كنت يتيماً فآويناك ، وكنت ضالاً فهديناك ، وكنت فقيراً فأغنيناك ، فتذكر هذه النعم ، واشكر ربك عليها ، ومن مظاهر هذا الشكر : أن تواسى اليتيم ، وأن تكرمه ، وأن تكون رفيقاً به . ولا تكن كأهل الجاهلية الذين كانوا يقهرون الأيتام ويذلونهم ويظلمونهم .

﴿ وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنْهَرْ ﴾ ، أي : وكما أننا قد هديناك بعد حيرة ، فاشكر نعمنا على ذلك ، بأن تفتح صدرك للسائل ، وهو الفقير المسكين ، وذو الحاجة ، الذي يسألك العون على سد خلّته ، فأعطه ما وجدت عطاءً ، أو ورده بكلمة طيبة ، تشرح صدره ، وتخفف ألم نفسه ، ولا تنهره بزجر عنيف ، ولا بقول غير لطيف .

أو السائل المسترشد عن العلم ، يسألك معرفة ما يجهله منه ، فلا ترده بالغلظة والجفوة ، وأجبه برفق ولين .

﴿ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴾ ، أي : وكما كنت عائلاً ، فأغنيناك بفضلنا وإحساننا ، فاشكرنا على ذلك ، بأن تظهر نعمنا عليك ولا تسترها ، وأذعها بين الناس ، وأمر أتباعك أن يفعلوا ذلك ، ولكن بدون تفاخر أو مباهاة ــ بل إبلاغاً وتعليماً وتربيةً وهدايةً ــ ، فإن ذكر النعم على سبيل الرياء والتفاخر والتطاول على الغير ، يبغضه الله ﷻ ، ويعاقب صاحبه عقاباً أليماً .

فأنت ترى أن الله ﷻ ، قد ذكر ثلاث نعم مما أنعم به على نبيه ﷺ ،

وأرشده إلى كيفية شكرها ، والله يحب الشاكرين .

وهكذا أدّب الله ــ جل جلاله ــ رسوله وخليله ﷺ ، فأكمل تأديبه وأحسنه .

نسأل الله ﷻ أن يجعلنا من عباده الشاكرين .

** التحليل والاستنتاج :

~~~~~~~~~~~~~~~~

للمفسرين في قوله : « الضحى » قولان :

أحدهما : أن المراد بالضحى : وقت الضحى ، وهو صدر النهار حتى ترتفع الشمس وتلقي شعاعها ، روي هذا عن قتادة ، ومقاتل .

القول الثاني : أن المراد بالضحى هنا : النهار كله .

بدليل أنه جعل في مقابلة الليل كله ، وبدليل قوله تعالى : ﴿ أَفَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَٰتًا وَهُمْ نَآئِمُونَ . أَوَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴾ { الأعراف : ٩٧ ، ٩٨ } ، فقوله : ﴿ ضُحًى ﴾ ــ أي : نهاراً ــ ، في مقابلة قوله : ﴿ بَيَٰتًا ﴾ ، أي : ليلاً [١].

وقال أهل المعاني فيه وفي أمثاله: فيه إضمار، مجازه «ورب الضحى»[٢].

قال الشوكاني: «ولا وجه لهذا، فللّه ﷻ أن يقسم بما شاء من خلقه» [٣].

وعليه ، فالراجح ، هو القول الأول ؛ لأن الضحى يطلق على وقت انتشار ضياء الشمس حين ترتفع ، وتلقى بأشعتها على الكون ، ويبرز الناس لأعمالهم المتنوعة .

** **وخص وقت الضحى بالقسم ؛** لأنه وقت النشاط والحركة ، والإقبال على السعي والعمل ، فيجتمع فيه الناس ، ويكمل أنسهم بعد الخوف وعدم الاطمئنان في الليل لظلمته ، وانقطاع الحركة فيه ، فبشره ﷻ بأنه بعد وحشتك بسبب فترة

(١) ينظر : جامع البيان للطبري (٢٢٩/٣٠) والكشاف (٧٧٠/٤) ومعالم التنزيل (٤٥١/٨) والجامع لأحكام القرآن (٩١/٢٠) .

(٢) الجامع لأحكام القرآن (٩١/٢٠) .

(٣) فتح القدير للشوكاني (٤٥٧/٤) .

الوحي ، يظهر الضحى بنزوله ، ويكمل أُنسك ، وينشرح صدرك .

** **وتخصيص الليل بالقسم ؛** لأنه وقت الراحة بعد العناء ، والسكون بعد الحركة والاضطراب ، ولأنه وقت خلو المحب بالمحبوب ، والأمن من كل واشٍ ورقيبٍ .

وقيل : إنه تعالى أقسم له ﷻ بوقتين فيهما صلاته ﷺ التي جعلت قرة عينه، وسبب مزيد قربه وأُنسه .

وقيل : إنما خصّ وقت الضحى بالقسم ، لأنها الساعة التي كلم الله ﷻ فيها موسى ﷺ ، وألقى فيها السحرة سجداً ، لقوله ﷻ : ﴿ قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ ٱلزِّينَةِ وَأَن يُحْشَرَ ٱلنَّاسُ ضُحًى ﴾ { طه : ٥٩ } .

وأقسم بالليل ، لأنه الوقت الذي أُسرى به ﷻ إلى بيت المقدس ، ثم عُرج به إلى السموات العلا ، حتى وصل إلى سدرة المنتهى ، فاكتسب الضحى والليل تلك الفضيلة ، وهذه المزية لكون كل منهما كان وقتاً وظرفاً لحدث عظيم ، فكيف فاعل الطاعة ؟ وأفاد أيضاً أن الذي أكرم موسى ﷺ لا يدع إكرامك ، والذي قلب قلوب السحرة حتى سجدوا ، يقلب قلوب أعدائك [١].

** **وعلى هذا يكون المراد بالضحى والليل :** ضحىً معيناً ، وليلاً معيناً ، والأولى أن يراد بهما الضحى والليل من غير تعيين .

قال الشوكاني : « والظاهر أن المراد به الضحى من غير تعيين » [٢].

✿ ✿ ✿ ✿ ✿ ✿ ✿

(١) ينظر : مفاتيح الغيب للرازي (١٨٩/٣١) وروح المعاني (١٥٥/٣٠) .

(٢) فتح القدير للشوكاني (٤٥٧/٤) .
~~~~~~~~~~~~~~~~

** قوله تعالى : ﴿ وَٱلَّيۡلِ إِذَا سَجَىٰ ﴾ :

اختلف المفسرون في معنى كلمة : ﴿ سَجَىٰ ﴾ على أربعة أقوال :

الأول : استوى وسكن ، روي عن مجاهد ، وعكرمة ، وقتادة ، والضحاك ، وابن زيد .

يقال : ليلة ساجية ، أي : ساكنة ، ويقال للعين إذا سكن طرفها ساجية ، يقال : سجا الشيء يسجو سجواً : إذا سكن .

الثاني : أظلم ، قاله ابن عباس .

الثالث : ذهب ، روي عن ابن عباس .

الرابع : أقبل بظلامه ، قاله سعيد بن جبير ، والحسن ، وعطاء [١].

** والأول أرجح ، وعليه جمهور المفسرين ، وأهل اللغة .

قال الإمام الطبري بعد ذكره لهذه الأقوال : « وأولى هذه الأقوال بالصواب عندي ، في ذلك : قول من قال : معناه ، والليل إذا سكن بأهله ، وثبت بظلامه ، كما يقال بحر ساج ، إذا كان ساكناً » [٢].

وقال العلامة الشوكاني : « والأول أولى ، وعليه جمهور المفسرين ، وأهل اللغة » [٣].

** ولسكونه معنيان :

أحدهما : سكون الناس والأصوات فيه ، فنسب إليه ، كما يقال : ليل قائم ، ونهار صائم .

(١) ينظر : تفسير مجاهد (٧٦٦/٢) وجامع البيان للطبري (٢٢٩/٣٠) وتفسير الماوردي (٤٧٠/٤) وزاد المسير (١٥٦/٩) .

(٢) جامع البيان للطبري (٢٣٠/٣٠) .

(٣) فتح القدير للشوكاني (٤٥٧/٤) .

والثاني : أن سكونه عبارة عن استقرار ظلامه واستوائه ، فلا يزداد بعد ذلك [١].

قال الحافظ ابن كثير : « وهذا قسم منه ﷻ بالضحى ، وما جعل فيه من الضياء ، والليل إذا سجى ، أي : سكن فأظلم وادلهم ، قاله : مجاهد ، وقتادة ، والضحاك ، وابن زيد ، وغيرهم .

وذلك دليل ظاهر على قدرة خالق هذا وهذا ، كما قال ﷻ : ﴿ وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰ . وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ﴾ { أول سورة الليل } ، وقال تعالى : ﴿ فَالِقُ ٱلۡإِصۡبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيۡلَ سَكَنٗا وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ حُسۡبَانٗاۚ ذَٰلِكَ تَقۡدِيرُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ ﴾ {الأنعام : ٩٦ } » [٢].

** **فإن قيل :** ما الحكمة في أن الله ﷻ في السورة السابقة « الليل » قدم ذكر الليل ، وفي هذه السورة أخره ؟

فالجواب من وجوه :

أحدها : أن بالليل والنهار ينتظم مصالح المكلفين ، والليل له فضيلة السبق ، لقوله ﷻ :

﴿ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ﴾ { أول سورة الأنعام } . وللنهار فضيلة النور ، بل الليل كالدنيا ، والنهار كالآخرة ، فلما كان لكل واحد فضيلة ليست للآخر ، لا جرم قدم هذا على ذاك تارة ، وذاك على هذا أخرى .

وثانيها : أنه تعالى قدم الليل على النهار في سورة أبي بكر ﷺ ، لأن أبا بكر سبقه كفر ، وههنا قدم الضحى ، لأن الرسول ﷺ ما سبقه ذنب .

(١) ينظر : تفسير الماوردي (٤٧٠/٤) والجامع لأحكام القرآن (٩٢/٢٠) وروح المعاني (١٥٣/٣٠) .

(٢) تفسير ابن كثير (٥٢٣/٥) .

وثالثها : سورة « الليل » سورة أبي بكر ، وسورة الضحى سورة محمد ﷺ ، ثم ما جعل بينهما واسطة ، ليعلم أنه لا واسطة بين محمد ﷺ وأبي بكر ﷺ ، فإذا ذكرت « الليل » أولاً وهو أبو بكر ، ثم صعدت وجدت بعده « النهار » ، وهو محمد ﷺ ، وإن ذكرت « والضحى » أولاً ، وهو محمد ، ثم نزلت وجدت بعده ، « والليل » ، وهو أبو بكر ، ليعلم أنه لا واسطة بينهما [١].

قال العلامة البيضاوي : « وتقديم { الليل } في السورة المتقدمة باعتبار الأصل ، وتقديم النهار ههنا باعتبار الشرف » [٢].

وأرى ــ والله أعلم ــ أنه لا مانع من الجمع بين هذه الوجوه ، إذ هي من باب خلاف التنوع .

✿ ✿ ✿ ✿ ✿ ✿ ✿

** **قوله : ﴿ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ﴾ :**

قال العلامة الآلوسي : « ودع » من التوديع ، وهو في الأصل من الدعة ، وهو أن تدعو للمسافر بأن يدفع الله تعالى عنه كآبة السفر ، وأن يبلغه الدعة وخفض العيش ، كما أن التسليم دعاء بالسلامة ، ثم صار متعارفاً في تشييع المسافر وتركه ، ثم استعمل في الترك مطلقاً .

وفسر به هنا، أي: ما تركك ربك. وفي البحر[٣]، والكشاف[٤]، التوديع: مبالغة في الودع ، أي : الترك ؛ لأن من ودعك مفارقاً ، فقد بالغ في تركك .

قيل : وعليه يلزم أن يكون المنفي الترك المبالغ فيه ، دون أصل الترك ،

(١) ينظر : مفاتيح الغيب للرازي (١٨٩/٣١) .
(٢) تفسير البيضاوي (٥٠١/٥) .
(٣) ينظر : البحر المحيط لأبي حيان (٤٨١/٨) .
(٤) ينظر : الكشاف للزمخشري (٧٧٠/٤) .

مع أن الظاهر نفي ذلك . فلا بد من أن يقال : إنه إنما نفي ذلك ، لأنه الواقع في كلام المشركين الذي نزلت له الآية . أو أن المبالغة تعود على النفي ، فيكون المراد المبالغة في النفي ، لا نفي المبالغة .

وقيل : إن المعنى ، ما قطعك قطع المودع ، على أن التوديع مستعار استعارة تبعية للترك . وفيه من اللطف والتعظيم ما لا يخفى ، فإن الوداع إنما يكون بين الأحباب ومن تعز مفارقته [١].

وقال العلامة ابن عاشور : « والتوديع تحية من يريد السفر ، واستعير في الآية للمفارقة بعد الاتصال ، تشبيهاً بفراق المسافر في انقطاع الصلة ، حيث شبه ﷺ انقطاع صلة الكلام ، بانقطاع صلة الإقامة ، والقرينة إسناد ذلك إلى الله الذي لا يتصل بالناس اتصالاً معهوداً » [٢].

والمقصود : نفى أن يكون الله ﷻ قد قطع وحيه عن نبيه ﷺ .

** **ويلاحظ في هذه الآية الكريمة أن الله ﷻ ذكر مفعول الفعل «ودع»،** وهو الكاف في قوله : ﴿ وَدَّعَكَ ﴾ ، وحذف مفعول الفعل ﴿ قَلَى ﴾ ، فلم يقل: «قلاك» ، فما السبب في ذلك ؟

** **ذكر المفسرون ثلاثة أسباب لحذف مفعول ﴿ قَلَى ﴾ :**

الأول : حذف للدلالة عليه في قوله تعالى : ﴿ مَا وَدَّعَكَ ﴾ ، وهو إيجاز لفظي لظهور المحذوف ، ومثله قوله تعالى بعد ذلك : ﴿ فَغَوَىٰ ﴾ ، وقوله : ﴿فَهَدَىٰ﴾ ، وقوله : ﴿ فَأَغْنَىٰ ﴾ ، فواضح من الآيات أن الخطاب لرسول الله ﷺ.

الثاني : أن رؤوس الآيات بالياء ، فأوجب اتفاق الفواصل حذف الكاف .

(١) ينظر : روح المعاني (١٥٥/٣٠) .
(٢) التحرير والتنوير (٣٩٥/٣٠) .

قال العلامة الفراء : « قوله : ﴿ وَمَا قَلَىٰ ﴾ ، يريد : وما قلاك ، فألقيت الكاف ، كما يقول : قد أعطيتك وأحسنتُ ، ومعناه : أحسنت إليك ، فتكتفي بالكاف الأولى من إعادة الأخرى ، ولأن رؤوس الآيات بالياء ، فاجتمع ذلك فيه » [١].

الثالث : أن الإطلاق يفيد : أنه ما قلاك ، ولا « قلا » أحداً من أصحابك . ولا أحداً ممن أحبك إلى قيام القيامة ، تقريراً لقوله : « الْمَرْءُ مَعَ مَنْ أَحَبَّ»[٢]،[٣].

** **ولكني أقول** : إن القرآن العظيم ، لا يفعل ذلك لفواصل الآيات وحدها، على حساب المعنى أبداً ، ولا يتعارض المعنى مع الفاصلة ، في القرآن كله . **فلماذا إذن هذا الحذف والذكر ؟**

أقول : الذكر من باب التكريم ، والحذف من باب التكريم أيضاً .

فلم يقل الله ﷻ لرسوله الكريم : « قلاك » ، لئلا يواجه ﷺ بنسبة القلى والبغض إليه ، وإن كان في كلام منفي ، وذلك لطفاً به ﷺ ، وشفقةً عليه ، وتقديراً لمنزلته .

أما التوديع ، فالذكر فيه تكريم للمخاطب ، لأن التوديع عند العرب عادة « يكون بين الأحباب ، ومن تعز مفارقته » [٤]، ولا يكون عند فراق الأشخاص .

فيحسن ذكر المفعول مع أفعال التكريم ، وحذفه مع أفعال السوء ، ولو بالنفي .

قال الشيخ عطية سالم : « **الذي يظهر من لطيف الخطاب** ، ورقيق

(١) معاني القرآن للفراء (٣/٢٧٣) .

(٢) الحديث في الصحيحين ، من رواية ابن مسعود ﷺ : أخرجه البخاري في الأدب ، باب (٩٦) علامة حُبِّ اللهِ ﷻ (٥/٢٢٨٣) ح (٥٨١٦) ومسلم في البر والصلة والآداب ، باب (٥٠) الْمَرْءُ مَعَ مَنْ أَحَبَّ (٤/٢٠٣٤) ح (٢٦٤٠) .

(٣) ينظر : الكشاف (٤/٧٧١) ومفاتيح الغيب للرازي (٣١/١٩٠) والتسهيل لابن جزي (٤/٢٠٤) .

(٤) الفتوحات الإلهية ، بتوضيح الجلالين للدقائق الخفية ، للجمل (٨/٣٤٥) .

الإيناس ، ومداخل اللطف ، أن الموادعة تشعر بالوفاء والود ، فأبرزت فيها كاف الخطاب ، أي : لم تتأت موادعتك ، وأنت الحبيب ، والمصطفى المقرب .

أما ﴿ قَلَىٰ ﴾ ، ففيها معنى البغض ، فلم يناسب إبرازها ، إمعاناً في إبعاد قصده ﷻ بشيء من هذا المعنى ، كما تقول لعزيز عليك : لقد أكرمتك وما أهنت ، لقد قربتك وما أبعدت .

كراهية أن تنطق بإهانته وكراهيته ، أو تصرح بها في حقه » [١].

** وهكذا يوجه الله ﷻ المسلمين لأدب الكلام ، ويعلمنا كيف نخاطب الذين نجلهم ونحترمهم ونحبهم .

** **وعلى هذا فقد جمعت هذه الآية الكريمة ، التكريم للرسول من ربه مرتين** : مرة بذكر المفعول مع فعل التوديع ، ومرة بحذف المفعول مع الفعل قلى .

** **كما أنها اشتملت على تكريم ثالث للنبي العدنان ﷺ** ، وهو ذكر لفظ «الرب»[٢]، دون لفظ الجلالة «الله»، حيث قال ﷻ: ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ﴾.

ولفظ «الرب» في الأصل مصدر بمعنى التربية ، وهي : إنشاء الشيء حالاً فحالاً إلى حد التمام[٣].

فاللفظ يفيد معنى : التربية والإحسان والإنعام والعطف والشفقة والتدبير . يقال لمن قام بإصلاح شيء وإتمامه قد ربه ، ومنه سمي « الربانيون » ، لقيامهم بالكتب .

(١) تتمة أضواء البيان لتلميذ الشنقيطي ، عطية محمد سالم (٨/٥٥٦) .

(٢) . الرب . اسم من أسماء الله ﷻ ، ولا يقال في غيره إلا بالإضافة ، فمثلاً يقال : رب البيت، فتكون لصاحب البيت . ومتى دخلت الألف واللام على كلمة . رب . فهي خاصة بالله تعالى، لأنها للعهد. أما إذا حذفت الألف واللام ، فقد صارت الكلمة مشتركة بين الله وبين عباده، والله ﷻ رب الأرباب كلها . ينظر : الجامع لأحكام القرآن (١/١٣٦) وفتح القدير (١/٢١) .

(٣) ينظر : المفردات للراغب (صـ ١٩٠) مادة . رب . ، وتفسير أبي السعود (١/١٣) .

ويطلق « الرب » على : المالك ، والسيد المطاع ، والمصلح ، والمربي ، والموجه ، والقيم على الأمر ، والمدبر ، والمعبود [١].

** والتربية أنواع ثلاثة :

الأول : مادية بدنية ، فهو ﷻ خلقنا من العدم ، وربنا أجنة في أرحام الأمهات ، ثم أوجد لنا لبن الأم ، ثم المطعومات والمشروبات ، وسخر لنا ﴿ مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ﴾ { الجاثية : ١٣ } من شمس وقمر ، ونجوم وكواكب ، وحيوان ونبات وماء .

الثاني : روحية ، فقد ربى الله ﷻ أرواح خلقه بإنزال التشريعات التي تصلح شئون دنياهم وآخرتهم .

الثالث : عقلية ، فقد أعطى الله ﷻ عباده العقل ، وتولى حفظه مما يفسده ، فحرم عليهم المسكرات وغيرها .

** فإذا كان « الرب » هو : المصلح ، والمربي ، والموجه ، والقيم على الأمر ، والمدبر ، والمعبود ، فكيف يودعك وهو ربك ؟

لا يمكن أن يودع الرب عبده ، كما لا يمكن لرب البيت أن يودعه ويتركه ، ورب الشيء لا يودعه ولا يتركه ، وإنما يرعاه ويحرص عليه .

واختيار كلمة « الرب » يحمل التطمين للرسول الكريم من ربه ، الذي يرعاه ، ولا يمكن أن يودعه أو يتركه أبداً .

قال العلامة الآلوسي : « الظاهر أن المراد بالرب هو الله ﷻ ، وفي التعبير عنه بعنوان الربوبية ، وإضافته إلى ضميره ﷺ من اللطف ما لا يخفى .

فكأنه قيل : ما تركك المتكفل بمصلحتك ، والمبلغ لك على سبيل التدريج

(١) ينظر : الجامع لأحكام القرآن (١٣٦/١) وفتح القدير (٢١/١) .

كمالك اللائق بك .

{ وَمَا قلى } أي : وما أبغضك » [١].

** وذكر الفاعل ، وهو الرب ، تكريم رابع للنبي ﷺ ، فلم يقل : « لم تودع ، ولم تقلى » .

يقول الأستاذ سيد قطب : « يقسم الله ﷻ بهذين الآنين الرائقين الموحيين { أي : الضحى ، والليل } ، فيربط بين ظواهر الكون ومشاعر النفس .

ويوحي إلى القلب البشري بالحياة الشاعرة المتجاوبة مع هذا الوجود الجميل الحي ، المتعاطف مع كل حي ، فيعيش ذلك القلب في أنس من هذا الوجود ، غير موحش ولا غريب فيه فريد . وفي هذه السورة بالذات يكون لهذا الأنس وقعه ، فظل الأنس هو المراد مده .

وكأنما يوحي الله لرسوله ﷺ منذ مطلع السورة ، أن ربه أفاض من حوله الأنس في هذا الوجود ، وأنه من ثم غير مجفوّ فيه ولا فريد !!

وبعد هذا الإيحاء الكوني يجيء التوكيد المباشر : ﴿ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ﴾ . ما تركك ربك ولا جفاك ، كما زعم من يريدون إيذاء روحك ، وإيجاع قلبك ، وإقلاق خاطرك .

وهو ﴿ رَبُّكَ ﴾ وأنت « عبده » المنسوب إليه ، المضاف إلى ربوبيته ، وهو راعيك وكافلك » [٢].

(١) روح المعاني (١٥٦/٣٠) .

(٢) في ظلال القرآن (٣٩/٦ إلى ٢٦) .

** العلاقة بين المقسم به ، والمقسم عليه :

« العلاقة بين المقسم به ، والمقسم عليه { أي : جواب القسم } هي الرابطة والمناسبة القوية بينهما ، وإذا كان التناسب بين الآيات والسور ضرب من الإعجاز البياني للقرآن الكريم ، فإن في آيات القسم صلة قوية بين المقسم به والمقسم عليه ، وتناسباً وثيقاً، بحيث لا يستقيم جمال النظم والمعنى إلا على هذا الترتيب المنزل»[1]؛ لأن القرآن كتاب محكم النسج ، لا تجد فيه خللاً بين كلماته ، ولا تنافر بين حروفه ، ولا تناقض في معانيه ولا في مراميه .

ومن المعلوم أن الحكمة من القسم في القرآن ، هي الاستدلال بالمقسم به على صدق المقسم عليه ، بحيث يكون في نفس المقسم به دلالة على المقسم عليه ، وهذا لا يحدث إلا إذا كان بينهما تناسب .

وفي إبراز المناسبة بين المقسم به ، والمقسم عليه ، في كل آيات القسم ، إظهار لمحاسن القرآن وأهدافه .

** والعلاقة هنا بين المقسم به ﴿ وَٱلضُّحَىٰ . وَٱلَّيۡلِ إِذَا سَجَىٰ ﴾ ، والمقسم عليه ﴿ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ﴾ ، وضحها العلامة ابن القيم ، فقال : « أقسم الله ﷻ بـ﴿ وَٱلضُّحَىٰ . وَٱلَّيۡلِ إِذَا سَجَىٰ ﴾ ، على إنعامه على رسوله ﷺ ، وإكرامه له ، وإعطائه ما يرضيه ، وذلك متضمن لتصديقه له ، فهو قسم على صحة نبوته ، وعلى جزائه في الآخرة ، فهو قسم على النبوة والمعاد .

وأقسم بآيتين عظيمتين من آياته ، دالتين على ربوبيته وحكمته ورحمته ، وهما الليل والنهار .

(١) عقود المرجان في علوم القرآن ، للدكتور / أحمد محمد صيره (صـ ٢٨) .

فتأمل مطابقة هذا القسم ، وهو « نور الضحى » ، الذي يوافي بعد ظلام الليل ، للمقسم عليه ، وهو « نور الوحي » ، الذي وافاه بعد احتباسه عنه ، حتى قال أعداؤه : ودع محمداً ربُه .

فأقسم بضوء النهار بعد ظلمة الليل ، على ضوء الوحي ونوره بعد ظلمة احتباسه واحتجابه .

وأيضاً : فإن فالق ظلمة الليل عن ضوء النهار ، هو الذي فلق ظلمة الجهل والشرك ، بنور الوحي والنبوة ، فهذان للحس ، وهذان للعقل .

وأيضاً : فإن الذي اقتضت رحمته ، أن لا يترك عباده في ظلمة الليل سرمداً ، بل هداهم بضوء النهار إلى مصالحهم ومعايشهم ، لا يليق به أن يتركهم في ظلمة الجهل والغى ، بل يهديهم بنور الوحي والنبوة ، إلى مصالح دنياهم وآخرتهم .

فتأمل حسن ارتباط المقسم به بالمقسم عليه ، وتأمل هذه الجزالة والرونق ، الذي على هذه الألفاظ ، والجلالة التي على معانيها »[1].

** كما أن في إقسام الله ﷻ بهذه المخلوقات ، لفت للأنظار إلى الكون ، وتأمل ما فيه من أسرار عجيبة ، وما يشتمل عليه من نظام بديع محكم ، فقد قدر الله تعالى كل شيء خلقه ، ثم هداه إلى القيام بمهمته في الحياة ، لا يصطدم هذا بذاك ، ولا يتخلف هذا عن ذاك ، ولا يبطئ في سيره ولا يسرع ، ولا يختل عن نظامه .

قال تعالى : ﴿ هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ ٱلشَّمۡسَ ضِيَآءٗ وَٱلۡقَمَرَ نُورٗا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعۡلَمُواْ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلۡحِسَابَۚ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلۡحَقِّۚ يُفَصِّلُ

(١) التبيان في أقسام القرآن لابن القيم (صـ ٤٦) وينظر : الإتقان للسيوطي (٣٥٤/٢) .

ٱلْأَيَـٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ . إِنَّ فِى ٱخْتِلَـٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ ﴾ { يونس : ٥ ، ٦ } ، وقال ﷻ حاكياً سؤال فرعون لموسى عليه السلام : ﴿ قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَـٰمُوسَىٰ ﴾ ؟ فأجابه موسى عليه السلام قائلاً : ﴿ قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴾ { سورة طه : الآيتان : ٤٩ ، ٥٠ } . وقال ﷻ : ﴿ وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ . وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ . وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَـٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ . لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾ { يس : ٣٧ – ٤٠ }، وقال : ﴿ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ﴾ { الرحمن : ٥ } ، وقال : ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ . وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ﴾ { الأعلى : ٢ ، ٣ } .

« وقد أثبت الواقع ، أنه كلما تعمق الباحثون في دراسة هذه الظواهر الطبيعية ، التي أقسم الله تعالى بها ، وجدوا فيها من العظمة والجلال والقدرة الإلهية ، ما تخر له النفوس ساجدة خاشعة قائلة : ﴿ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَـٰذَا بَـٰطِلًا سُبْحَـٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴾ { آل عمران : ١٩١ } » [1].

قال الشيخ عبد العظيم الزرقاني : « إن في مضامين تلك الأقسام بالحسيات أسراراً تنأى بها عن السذاجة والبساطة ، وتشهد ببراعة المخاطبين بها ، وتفوقهم في الفهم والذكاء والفصاحة والبيان .

ذلك أن القسم بها إشارة إلى الأسرار العظيمة التي وضعها الله في تلك الأمور التي أقسم بها ، حتى صح أن يكون مقسماً بها ، وتلك الأسرار لا يدركها إلا

(١) مباحث في علوم القرآن الكريم ، للدكتور / علي حسن رضوان (صـ ١٣١) دار الطباعة المحمدية ـ القاهرة ، ط / الأولى ١٤١٣هـ – ١٩٩٢م .

اللبيب ، لأنها غير مشروحة ، ولا مفسرة في القرآن الكريم ، فلا يفهمها إلا من كمل عقله ، وسلم ذوقه » .

ثم أورد القسم بـ ﴿ وَٱلضُّحَىٰ . وَٱلَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ﴾ كمثال على ذلك ، ثم قال : « هذه الآيات مصدرة بهذا القسم ، مشيرة إلى أن ما كان من سطوع الوحي على قلبه بمنزلة الضحى ، تقوى به الحياة ، وتنمى به الناميات ، وما عرض بعد ذلك من فترة الوحي ، فهو بمنزلة « الليل إذا سجى » ، لتستريح فيه القوى ، وتستعد فيه النفوس لما يستقبلها من العمل، ومن المعلوم أن النبي ﷺ لاقى من الوحي شدة أول أمره ، حتى جاء إلى خديجة ـ رضي الله عنها ـ تَرْجُفُ بَوَادِرُهُ[1]، كما هو معروف في حديث الصحيحين [2].

فكانت فترة الوحي لتثبيته عليه السلام ، وتقوية نفسه على احتمال ما يتوالى عليه منه ، حتى تتم به حكمة الله في إرساله إلى الخلق .

ولهذا قال ﷻ له ﷺ : ﴿ وَلَلْـَٔاخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ ٱلْأُولَىٰ ﴾ ، أي : إن كرة

(١) قوله : « تَرْجُفُ بَوَادِرُهُ » ، البوادر : جمع بادِرَة ، وهي لحمة بين المَنْكِب والعُنق . ينظر : النهاية لابن الأثير (١٠٦/١) مادة « بدر » . و« ترجف » : أي: تضطرب وتتحرك ، وذلك عند فزع الإنسان . ينظر : لسان العرب (١١٣/٩) مادة « رجف » .

(٢) يشير بذلك إلى حديث نزول جبريل عليه السلام على النبي ﷺ في غار حراء في بدأ أمره ، « ... فَجَاءَهُ الْمَلَكُ فَقَالَ : اقْرَأْ ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : مَا أَنَا بِقَارِئٍ . قَالَ : فَأَخَذَنِي فَغَطَّنِي ، حَتَّى بَلَغَ مِنِّي الْجَهْدَ ، ثُمَّ أَرْسَلَنِي ، فَقَالَ : اقْرَأْ ، قُلْتُ : مَا أَنَا بِقَارِئٍ . فَأَخَذَنِي فَغَطَّنِي الثَّانِيَةَ ، حَتَّى بَلَغَ مِنِّي الْجَهْدَ ، ثُمَّ أَرْسَلَنِي ، فَقَالَ : اقْرَأْ ، قُلْتُ : مَا أَنَا بِقَارِئٍ ، فَأَخَذَنِي فَغَطَّنِي الثَّالِثَةَ ، حَتَّى بَلَغَ مِنِّي الْجَهْدَ ، ثُمَّ أَرْسَلَنِي . فَقَالَ : ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِى خَلَقَ . خَلَقَ الْإِنسَـٰنَ مِنْ عَلَقٍ . اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ . الَّذِى عَلَّمَ بِالْقَلَمِ . عَلَّمَ الْإِنسَـٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ . فَرَجَعَ بِهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ تَرْجُفُ بَوَادِرُهُ ، حَتَّى دَخَلَ عَلَى خَدِيجَةَ ، فَقَالَ : زَمِّلُونِي زَمِّلُونِي ، فَزَمَّلُوهُ حَتَّى ذَهَبَ عَنْهُ الرَّوْعُ... » . الحديث من رواية عائشة ـ رضي الله عنها ـ ، واللفظ للبخاري : كتاب بدء الوحي، باب (١) كيف كان بدء الوحي إلى الرسول ﷺ (٤/١) ح (٣) .

الوحي ثانياً سيكمل بها الدين ، وتتم بها نعمة الله على أهله ، وأين بداية الوحي من نهايته ؟ وأين إجمال الدين الذي جاء في قوله تعالى : ﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴾ { أول العلق } الخ ، من تفصيل العقائد والأحكام ، الذي جاء في مثاني القرآن ؟ ثم زاد الأمر تأكيداً بقوله : ﴿ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ ﴾ .

فمن هذا نعلم : أن الحلف بـ﴿ وَٱلضُّحَىٰ . وَٱلَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ﴾ في هذا المقام ليس مجرد تذكير بآياته ونعمه فحسب ، بل هو أيضاً إقامة دليل على أن تنزل الوحي أشبه بضحوة النهار ، وأن فترة الوحي أشبه بهَدْأة الليل ، فإذا كانوا يتقبلون « الضحى والليل » بالرضا والتسليم ، لما فيهما من نفع الإنسان بالسعي والحركة والحياة بالنهار ، والنوم والاستجمام بالليل ، يجب أن يتقبلوا أيضاً ما يجري على محمد ﷺ من نزول الوحي وفترته ، للمعنى الذي سلف » [١].

✿ ✿ ✿ ✿ ✿ ✿ ✿

** قوله : ﴿ وَلَلْـَٔاخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ ٱلْأُولَىٰ ﴾ :

قال العلامة الزمخشري : « **فإن قلت** : كيف اتصل قوله : ﴿ وَلَلْـَٔاخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ ٱلْأُولَىٰ ﴾ بما قبله ؟

قلت : لما كان في ضمن نفي التوديع والقلي ، أنّ الله مواصلك بالوحي إليك، وأنك حبيب الله ، ولا ترى كرامة أعظم من ذلك ، ولا نعمة أجل منه ، أخبره أن حاله في الآخرة أعظم من ذلك وأجل ، وهو السبق والتقدّم على جميع أنبياء الله ورسله ، وشهادة أمته على سائر الأمم ، ورفع درجات المؤمنين ، وإعلاء مراتبهم بشفاعته ، وغير ذلك من الكرامات السَّنية » [٢].

---

(١) مناهل العرفان (١٥٦/١) .

(٢) الكشاف (٧٧١/٤) .

وذكر العلامة الرازي وجهاً آخراً ، فقال : « لما نزل قوله تعالى : ﴿ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ﴾ حصل له بهذا تشريف عظيم ، فكأنه استعظم هذا التشريف، فقيل له : ﴿ وَلَلْـَٔاخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ ٱلْأُولَىٰ ﴾ ، أي : هذا التشريف وإن كان عظيماً، إلا أن مالك عند الله في الآخرة خير وأعظم » [١].

** وعلى هذا ، فالمراد بالآخرة : الدار الآخرة التي تقابل الدار الأولى ، وهي الحياة الدنيا ؛ وذلك لأن الدار الآخرة باقية ، صافية عن الشوائب على الإطلاق ، والدنيا فانية مشوبة بالمضار [٢]. كما أن « خيرات الدنيا قليلة مشوبة منقطعة ، ولذات الآخرة كثيرة خالصة دائمة » [٣].

قال الحافظ ابن كثير : « وللدار الآخرة خير لك من هذه الدار ، ولهذا كان رسول الله ﷺ أزهد الناس في الدنيا ، وأعظمهم لها إطراحاً ، كما هو معلوم بالضرورة من سيرته .

ولما خير ﷺ في آخر عمره بين الخلد في الدنيا إلى آخرها ، ثم الجنة ، وبين الصيرورة إلى الله ﷻ ، اختار ﷺ ما عند الله على هذه الدنيا الدنية .

ثم أورد [٤] ما روي عن عبد الله بن مسعود ﷺ ، قال : اضْطَجَعَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَلَى حَصِيرٍ ، فَأَثَّرَ فِي جَنْبِهِ ، فَلَمَّا اسْتَيْقَظَ جَعَلْتُ أَمْسَحُ جَنْبَهُ ، فَقُلْتُ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، أَلا آذَنْتَنَا حَتَّى نَبْسُطَ لَكَ عَلَى الْحَصِيرِ شَيْئاً ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : «مَا لِي وَلِلدُّنْيَا ، إِنَّمَا مَثَلِي وَمَثَلُ الدُّنْيَا كَرَاكِبٍ ، ظَلَّ تَحْتَ شَجَرَةٍ، ثُمَّ رَاحَ وَتَرَكَهَا»[٥].

---

(١) التفسير الكبير للرازي (١٩١/٣١) .

(٢) ينظر : روح المعاني (١٥٨/٣٠) .

(٣) التفسير الكبير للرازي (١٩٢/٣١) .

(٤) تفسير ابن كثير (٥٢٣/٤) .

(٥) أخرجه أحمد في مسنده (٣٩١/١) ح (٣٧٠٩) وصححه الشيخ شعيب الأرنؤوط . وأخرجه

** وذهب بعض المفسرين إلى أن المراد بالآخرة ، نهاية أمره ﷺ في هذه الدنيا ، والمراد بالأولى بداية أمره ﷺ في هذه الدنيا ، فيكون المعنى: ولنهاية أمرك ـ أيها الرسول الكريم ـ خير من بدايته ، فإن كل يوم يمضى من عمرك ، سيزيدك الله ﷻ فيه ، عزاً على عز ، ونصراً على نصر ، وتأييداً على تأييد ، حتى ترى الناس وقد دخلوا في دين الله أفواجاً .

وقد صدق الله ﷻ لنبيه وعده ، حيث فتح له مكة ، ونشر دعوته في مشارق الأرض ومغاربها .

قال العلامة الرازي في معنى الآية : وللأحوال الآتية خير لك من الماضية، كأنه تعالى وعده بأنه سيزيده كل يوم عزاً إلى عز ، ومنصباً إلى منصب، فيقول : لا تظن أني قليتك ، بل تكون كل يوم يأتي أسمى وأرفع ، فإني أزيدك منصباً وجلالاً [1].

**** ويؤيد القول الأول ، أمران :**

أحدهما : ظاهر لفظ الآية ، **قال العلامة الآلوسى** : « وحمل { الآخرة } على الدار الآخرة المقابلة للدنيا ، و{ الأولى } على الدار الأولى ، وهى الدنيا ، هو الظاهر » [2].

ويقوي هذا قاعدة : «**لا يجوز العدول عن ظاهر القرآن إلا بدليل يجب**

الترمذي في سننه : كتاب الزهد ، باب مَا جَاءَ فِي أَخْذِ الْمَالِ بِحَقِّهِ (٥٨٨/٤) ح (٢٣٧٧) **ولفظه** : عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بن مسعود ، قَالَ : . نَامَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَلَى حَصِيرٍ ، فَقَامَ وَقَدْ أَثَّرَ فِي جَنْبِهِ ، فَقُلْنَا : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، لَوْ اتَّخَذْنَا لَكَ وِطَاءً ، فَقَالَ : مَا لِي وَمَا لِلدُّنْيَا ، مَا أَنَا فِي الدُّنْيَا إِلا كَرَاكِبٍ اسْتَظَلَّ تَحْتَ شَجَرَةٍ ، ثُمَّ رَاحَ وَتَرَكَهَا . . وقال الترمذي: وَفِي الْبَاب عَنْ ابْنِ عُمَرَ ، وَابْنِ عَبَّاسٍ ، وهَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ .

(١) ينظر : التفسير الكبير للرازي (١٩١/٣١) وينظر : المحرر الوجيز لابن عطية (٤٩٣/٥) .

(٢) روح المعاني (١٥٨/٣٠) .

الرجوع إليه».

فالأصل في نصوص القرآن الكريم ـ وكذا السنة النبوية ـ أن تحمل على ظواهرها ، وتفسر على حسب ما يقتضيه ظاهر اللفظ ، ولا يجوز أن يُعدل بألفاظ الوحي عن ظاهرها إلا بدليل واضح يجب الرجوع إليه [1]، لأنه لا يُعرف مراد المتكلم إلا بالألفاظ الدالة عليه ، والأصل في كلامه وألفاظه أن يكون دالاً على ما في نفسه من المعاني ، وليس لنا طريق لمعرفة مراده غير كلامه وألفاظه [2].

وثانيهما : ما روي عن ابن عباس - رضي الله عنهما - قال: قال رسول الله ﷺ :

« عُرض عليّ ما هو مفتوح لأمتي بعدي، فسرّني، فأنزل الله: ﴿ وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ ﴾ إلى قوله : ﴿ فَتَرْضَىٰ ﴾ ، أعطاه الله في الجنة ألف قصر من

---

(١) **كدليل عقلي ظاهر** ، كقوله تعالى : ﴿ إِنِّي وَجَدتُّ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ ﴾ {النمل: ٢٣} ، فإن كل أحد يعلم بعقله أن المراد . أوتيت من جنس ما يؤتاه مثلها . . **أو دليل سمعي ظاهر** ، وهي الدلالات في الكتاب والسنة التي تصرف بعض الظواهر ، فإذا وجد الدليل جاز صرف اللفظ عن ظاهره ، شريطة أن يسلم ذلك الدليل من المعارض . وأن يكون المعنى المُدَّعَى موافقاً لوضع اللغة أو عرف الاستعمال وعادة صاحب الشرع ، وكل تأويل خرج عن هذا فليس بصحيح . ينظر : فتاوى ابن تيمية (٣٦٠/٦) وبدائع الفوائد ، للإمام / أبي عبد الله محمد بن أبي بكر بن قيم الجوزية ـ ت ٧٥١هـ ، تحقيق / هشام عبد العزيز عطا ، وآخرون (٢٠٥/٤) مكتبة نزار مصطفى الباز ـ مكة المكرمة ، ط / الأولى ١٤١٦هـ - ١٩٩٦م ، وإرشاد الفحول إلى تحقيق الحق من علم الأصول ، للإمام / محمد ابن علي بن محمد الشوكاني ـ ت ١٢٥٠هـ ، تحقيق / محمد سعيد البدري (صـ ٣٠٠) دار الفكر ـ بيروت ، ط / الأولى ١٤١٢هـ - ١٩٩٢م .

(٢) **ينظر حول هذه القاعدة والترجيح بها** : النكت والعيون للماوردي (٤٥/١) والتسهيل لابن جزي (٩/١) والبرهان للزركشي (١٦٧/٢) وفتح القدير (١٩٠/٢) وقواعد التفسير لخالد السبت (٦٧٣/٢) وقواعد الترجيح للحربي (١٣٧/١) .

لؤلؤ ، ترابها المسك ، في كل قصر ما ينبغي له » [١].

ويؤيد هذا قاعدة : **﴿ إذا صح سبب النزول الصريح فهو مرجح لما وافقه من أوجه التفسير ﴾**.

فإذا تنازع العلماء في تفسير آية من كتاب الله تعالى ، وتعددت أقوالهم فيها، فأولى الأقوال بتفسير الآية ما وافق سبب النزول الصحيح الصريح في السببية [٢].

** والأولى أن تحمل الآية على الوجهين معاً ، لأن اللفظ يحتمل ذلك .

و{ الآخرة } في هذه السورة المباركة جاءت مقابل { الأولى } ، ولم تأت مقابل الدنيا ، فلم يقل : « وللآخرة خير لك من الدنيا » ؛ لأنه لو قالها لما صحت إلا في الآخرة ، فكأنما حصر الخير في الآخرة فقط ، ونفى حصول الخير فيما يستقبل من حياته ﷺ .

وعلى هذا فمعنى الآية : إن ما يأتي خير لك ـ أيها الرسول ـ مما مضى، أي : من الآن فصاعداً ، فيما يستقبل من عمرك ، هو خير لك من الأولى ، وأكد ذلك باللام في قوله ﷻ : ﴿ وَلَلْآخِرَةُ ﴾ .

وقد حصل هذا بالفعل ، فكل ما استقبل من حياته ﷺ خير له مما مضى ،

---

(١) أخرجه الطبراني في المعجم الأوسط (١٧٩/١) ح (٥٧٢) والبيهقي في دلائل النبوة (٦١/٧) بنحوه . { دلائل النبوة ومعرفة أحوال صاحب الشريعة ، للإمام / أبي بكر أحمد بن الحسين البيهقي ـ ت ٤٥٨هـ ، تحقيق الدكتور/ عبد المعطي أمين قلعجي ـ دار الكتب العلمية ـ بيروت ، ط / الأولى ١٤٠٥هـ } **قال الهيثمي** في مجمع الزوائد (١٣٨/٧) : . وفيه معاوية بن أبي العباس ، ولم أعرفه ، وبقية رجاله ثقات . **وحكم السيوطي على سنده بالحُسن** . الدر المنثور (٥٤٠/٨) .

(٢) **ينظر حول هذه القاعدة واستعمالها في الترجيح** : الجامع لأحكام القرآن (١٢١/٥) والبرهان للزركشي (٢٢/١) والإتقان للسيوطي (٨٣/١) ومحاسن التأويل (٢٢/١) والمدخل لأبي شهبة (صـ ١٣٦) وقواعد الترجيح للحربي (٢٤١/١) .

بالإضافة إلى ما أعده الله لرسول ﷺ في الدار الآخرة ، والآخرة خير وأبقى .

قال العلامة ابن عاشور : « و{ الآخرة } مؤنث الآخرِ ، و{ الأولى } مؤنث الأوّل ، وغلب لفظ { الآخرة } في اصطلاح القرآن على الحياة الآخرة ، وعلى الدار الآخرة ، كما غلب لفظ { الأولى } على حياة الناس التي قبل انخرام هذا العالم .

فيجوز أن يكون المراد هنا من كلا اللفظين ، كِلا معنييه ، فيفيد أن الحياة الآخرة خير له من هذه الحياة العاجلة ، تبشيراً له بالخيرات الأبدية ، ويفيد أن حالاته تجري على الانتقال من حالة إلى أحسن منها ، فيكون تأنيث الوصفين جارياً على حالتي التغليب وحالتي التوصيف ، ويكون التأنيث في هذا المعنى الثاني لمراعاة معنى الحالة .

ويومىء ذلك إلى أن عودة نزول الوحي عليه ﷺ هذه المرة خير من العودة التي سبقت ، أي : تكفل الله بأن لا ينقطع عنه نزول الوحي من بعد .

فاللام في { الآخرة } و{ الأولى } لام الجنس ، أي كُلّ آجل أمره هو خير من عاجله في هذه الدنيا وفي الأخرى

واللام في قوله : { لك } لام الاختصاص ، أي : خير مختص بك ، وهو شامل لكل ما له تعلق بنفس النبي ﷺ في ذاته ، وفي دِينه ، وفي أمته .

فهذا وعد من الله بأن ينشر دين الإسلام ، وأن يمكّن أمته من الخيرات التي يأملها النبي ﷺ لهم » [١].

** **والخلاصة** : أن الراجح في تفسير هذه الآية ﴿ وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ ﴾ ـ والله أعلم ـ هو الجمع بين القولين عملاً بالقاعدتين الآتيتين :

---

(١) التحرير والتنوير (٣٩٧/٣٠) .

الأولى : ﴿ إذا احتمل اللفظ معاني متعددة ولم يمتنع إرادة الجميع حمل عليها ﴾ (١).

الثانية: ﴿ إعمال جميع الأدلة ـ بشرط صحتها ـ أولى من إعمال أحدها وإهمال الآخر ﴾(٢).

** وخص الله ﷻ نبيه ﷺ بالخطاب بقوله : ﴿ وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ ﴾ ، مع أن هذا في حق المتقين أجمعين ، لأنه لما كان رسول الله ﷺ هو أتقى الناس ، وأبرهم ، وأخشاهم لله ، وأعلمهم ، كان له الحظ الأوفر يوم القيامة .

ولهذا ثبت في صحيح البخاري ، من حديث أبي سعيد الخدري ﷺ ، قَالَ : خَطَبَ النَّبِيُّ ﷺ فَقَالَ : « إِنَّ اللَّهَ خَيَّرَ عَبْداً بَيْنَ الدُّنْيَا ، وَبَيْنَ مَا عِنْدَهُ ، فَاخْتَارَ مَا عِنْدَ اللَّهِ » . فَبَكَى أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ ﷺ ، فَقُلْتُ فِي نَفْسِي : مَا يُبْكِي هَذَا الشَّيْخَ ؟ إِنْ يَكُنْ اللَّهُ خَيَّرَ عَبْداً بَيْنَ الدُّنْيَا ، وَبَيْنَ مَا عِنْدَهُ ، فَاخْتَارَ مَا عِنْدَ اللَّهِ ، فَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ هُوَ الْعَبْدَ ، وَكَانَ أَبُو بَكْرٍ أَعْلَمَنَا .

قَالَ ﷺ : « يَا أَبَا بَكْرٍ لا تَبْكِ ، إِنَّ أَمَنَّ النَّاسِ عَلَيَّ فِي صُحْبَتِهِ وَمَالِهِ أَبُو

(١) هذه قاعدة نافعة ، من عرفها انفتح له باب واسع من معاني القرآن الكريم ، كما ينحل عنه كثير مما يذكر في كتب التفسير على أنه من الخلاف . وعليه فإن المفسرين إذا اختلفوا في تفسير آية من كتاب ﷻ على أقوال ، وأمكن حمل الآية عليها كلها ، لاحتمال ألفاظ الآية لها بدون تكلف ، فالأولى القول بهذه الآراء كلها في الآية . **ينظر حول هذه القاعدة واستعمالها في الترجيح** : تفسير الماوردي (٤٦/١ - ٤٧) ومجموع الفتاوي لابن تيمية (١١/١٥ ، ١٢ ، ١٥) ، (١٩/١٧) والتحرير والتنوير (٩٣/١ - ١٠٠) وأضواء البيان (٢٤/١) ، (١٢٤/٣) وقواعد التفسير لخالد السبت (٨٠٧/٢) .

(٢) **تنظر هذه القاعدة في** : مناهل العرفان (١٢٨/٢ ، ١٥٢) والقواعد الفقهية بين الأصالة والتوجيه ، للدكتور / محمد بكر إسماعيل (صـ ١٤٢) دار المنار- القاهرة ، ط / الأولى ١٤١٧هـ - ١٩٩٧م، والتعارض والترجيح عند الأصوليين وأثرهما في الفقه الإسلامي ، محمد إبراهيم الحفناوي (صـ ٢٥٩) دار الوفاء بالمنصورة ، ط / الثانية ١٤٠٨هـ - ١٩٨٧م .

بَكْرٍ ، وَلَوْ كُنْتُ مُتَّخِذاً خَلِيلاً مِنْ أُمَّتِي ، لاتَّخَذْتُ أَبَا بَكْرٍ ، وَلَكِنْ أُخُوَّةُ الإِسْلامِ وَمَوَدَّتُهُ ، لا يَبْقَيَنَّ فِي الْمَسْجِدِ بَابٌ إِلا سُدَّ ، إِلا بَابُ أَبِي بَكْرٍ » (١).

فلأن النبي ﷺ موقن يقيناً جازماً أن ما عند الله تعالى خير له ، اختار ما عند الله ﷻ ، ولهذا قال الله ﷻ : ﴿ لَٰكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نُزُلًا مِّنْ عِندِ اللَّهِ ۗ وَمَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ لِّلْأَبْرَارِ ﴾ { آل عمران : ١٩٨ } ، وقال : ﴿ وَمَا أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَزِينَتُهَا ۚ وَمَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ { القصص : ٦٠ } ، وقال : ﴿ وَالْآخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ { الزخرف : ٣٥ } ، وقال : ﴿ بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا . وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴾ { الأعلى : ١٦ ، ١٧ } .

وقيل : في تخصيص النبي ﷺ بالخطاب ، إشارة إلى أنه كان في جماعته ، من كانت الآخرة شراً له ، فلو أنه ﷺ عمم ، لكان كذباً ، ولو خصص المطيعين بالذكر ، لافتضح المذنبون والمنافقون ، ولهذا السبب قال موسى عليه السلام : ﴿ قَالَ كَلَّا ۖ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴾ { الشعراء : ٦٢ }، إذ كان في قومه من لم يكن لائقاً بهذا المنصب .

وأما محمد ﷺ ، فالذي كان معه في الغار، لما كان من أهل السعادة قطعاً ، لا جرم قال : ﴿ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا ﴾ { التوبة : ٤٠ }. إذ لم يكن ثم إلا نبي وصديق (٢).

وقال العلامة البقاعي : « وقيد بقوله : { لك } ، لأنه ليس كل أحد كذلك ، ﴿ مِنَ الْأُولَىٰ ﴾ ، أي : الدنيا الفانية التي لا سرور فيها خالص ، كما أن النهار

(١) أخرجه البخاري في صحيحه : كتاب القبلة ، باب (٤٦) الخوخة والممر في المسجد (١٧٧/١) ح (٤٥٤) .

(٢) ينظر : التفسير الكبير للرازي (١٩٢/٣١) وغرائب القرآن للنيسابوري (٥١٦/٦) .

الذي هو بعد الليل ، خير منه وأشرف ، ولا سيما الضحى منه .

وقد أفهم ذلك أن الناس على أربعة أقسام :

منهم من له الخير في الدارين ، وهم أهل الطاعة الأغنياء .

ومنهم من له الشر فيهما ، وهم الكفرة الفقراء .

ومنهم من له صورة خير في الدنيا ، وشر في الآخرة ، وهم الكفرة الأغنياء .

ومنهم من له صورة شر في الدنيا ، وخير في الآخرة ، وهم المؤمنون الفقراء » [١].

✿ ✿ ✿ ✿ ✿ ✿ ✿

**** قول تعالى : ﴿ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ ﴾ :**

هذه الجملة معطوفة على جملة القسم كلها .

**** واتصالها بما قبلها من وجهين :**

« **الأول** : هو أنه تعالى لما بين أن الآخرة خير له ﷺ من الأولى ، ولكنه لم يبين أن ذلك التفاوت إلى أي حد يكون ، بين بهذه الآية مقدار ذلك التفاوت ، وهو أنه ينتهي إلى غاية ما يتمناه الرسول ﷺ ويرتضيه .

الوجه الثاني : كأنه تعالى لما قال: ﴿ وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ ﴾ ، فقيل : ولِمَ قلت إن الأمر كذلك ؟ فقال: لأنه يعطيه كل ما يريده ، وذلك مما لا تتسع الدنيا له ، فثبت أن الآخرة خير له من الأولى » [٢].

وجئ بحرف الاستقبال في قوله تعالى: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ﴾ ،

(١) نظم الدرر للبقاعي (١٠٧/٢٢) .

(٢) التفسير الكبير للرازي (١٩٣/٣١) .

لإفادة أن هذا العطاء الموعود به، مستمر لا ينقطع، كما في قوله تعالى: ﴿ وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ ﴾ { الليل : ٢١ } [١].

قال العلامة الرازي : « ما الفائدة في قوله : ﴿ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ ﴾ ، ولِمَ لَمْ يقل : « وسيعطيك ربك » ؟

**** الجواب فيه فوائد :**

إحداها : أنه يدل على أنه ما قرب أجله ، بل يعيش بعد ذلك زماناً .

وثانيها : أن المشركين لما قالوا : ودعه ربه وقلاه ، فالله تعالى رد عليهم بعين تلك اللفظة ، فقال : ﴿ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ﴾ ، ثم قال المشركون : سوف يموت محمد ، فرد الله عليهم ذلك بهذه اللفظة فقال : ﴿ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ ﴾ » [٢].

**** وحذف المفعول الثاني في قوله : ﴿ يُعْطِيكَ ﴾** ، ليعم كل وجوه العطاء التي يحبها ويرجوها ﷺ ، لنفسه ولأمته . أي : ولسوف يعطيك ربك عطاءً يرضيك ، رضاءً تاماً .

فكان مفاد هذه الجملة تعميم العطاء، كما أفادت الجملة قبلها تعميم الأزمنة.

**** وجيء بفاء التعقيب في قوله : ﴿ فَتَرْضَىٰ ﴾** ، لإفادة كون العطاءِ عاجلَ النفع ، وأنه سيأتي إليه ﷺ في وقت قريب ، وقد أنجز ﷺ وعده .

**** وتعريف لفظ « الرب » بالإضافة ﴿ رَبُّكَ ﴾** ، دون اسم « الله » العَلَم، لما يؤذن به لفظ « رب » من الرأفة واللطف ، وللتوسل إلى إضافته إلى ضمير المخاطب ، لما في ذلك من الإشعار بعنايته برسوله ﷺ ، وتشريفه بإضافة رَب

(١) ينظر : التحرير والتنوير (٣٩٨/٣٠) .

(٢) التفسير الكبير للرازي (١٩٣/٣١) .

إلى ضميره .

وهو وعد واسع الشمول ، لما أعطيه النبي ﷺ ، من النصر والظفر بأعدائه يوم بدر ، ويوم فتح مكة ، ودخول الناس في الدين أفواجاً ، والغلبة على قريظة والنضير وإجلائهم ، وبثّ عساكره وسراياه في بلاد العرب ، وما فُتح على الخلفاء الراشدين ومَن بعدهم ، من أقطار الأرض شرقاً وغرباً، وما قذف في قلوب أهل الشرق والغرب من الرعب وتهيب الإسلام ، وفشوّ الدعوة ، ولما ادّخر له من الثواب الذي لا يعلم كنهه إلاّ الله ﷻ [1].

قال العلامة البيضاوي : هذا « وعد شامل لما أعطاه ، من كمال النفس ، وظهور الأمر ، وإعلاء الدين ، ولما ادخر له مما لا يعرف كنهه سواه » [2].

واختيار الكلمة ﴿ فَتَرْضَىٰ ﴾ في غاية الأهمية ، فالرضا هو من أجل النعم على الإنسان ، وهو أساس الاستقرار والطمأنينة وراحة البال .

فإن فقد الإنسان الرضا ، كان دائم الحزن ، دائم الكآبة ، ضيق الصدر ، ضيق الحياة ، يضيق بكل شيء ، كأن الدنيا ــ على سعتها ــ في عينيه سمّ الخياط.

وإن فقده في جانب من جوانب الحياة ، فقد استقراره بقدر ذلك الجانب ، ولذا جعل الله ﷻ الرضا صفة أهل الجنة ، فقال : ﴿ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴾ {الحاقة : ٢١ } ، وقال تعالى : ﴿ فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ . فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴾ { القارعة : ٦ ، ٧ } .

وأهل الجنة عن أعمالهم التي عملوها في الدنيا راضون في الآخرة ، لما

(١) ينظر : الكشاف (٤/٧٧١) والتحرير والتنوير (٣٠/٣٩٨) .
(٢) تفسير البيضاوي (٥/٥٠٢) .

رأوا عظيم ثوابها ، قال تعالى : ﴿ لِّسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ ﴾ { الغاشية : ٩ } .

والجنة دار الرضوان ، والخازن « رضوان » ، والمُدْخَل يرضونه ، قال تعالى : ﴿ لَيُدْخِلَنَّهُم مُّدْخَلاً يَرْضَوْنَهُ ۗ وَإِنَّ اللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ ﴾ { الحج : ٥٩ } .

والنفس راضية مرضية ، قال تعالى : ﴿ يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ . ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً . فَادْخُلِي فِي عِبَادِي . وَادْخُلِي جَنَّتِي ﴾ { الفجر : ٢٧ – ٣٠ } .

وقد يؤدي عدم الرضا ــ تحت الضغط النفسي واليأس ــ إلى الانتحار ؛ لذا فإن اختيار الرضا ــ وهو نعمة روحية جزيلة ــ ، هو اختيار لنعمة من أجل النعم، ولها دلالتها في الحياة عامة ، وليست خاصة بالرسول الأكرم ﷺ ، فإذا رضي الإنسان اطمأنت نفسه ، وسكن قلبه ، وهدأ باله ، وانشرح صدره ، وان لم يرض ، حل معه التعب والنكد والهموم والقلق ، مع كل ما أوتي من وسائل الراحة والاستقرار ، وفي النهاية لا يكون في ملك الله ﷻ إلا ما أراده ﷻ وقضاه .

** واللام في قوله : ﴿ وَلَسَوْفَ ﴾ ، لام الابتداء المؤكدة لمضمون الجملة، والمبتدأ محذوف ، تقديره : « ولأنت سوف يعطيك ربك فترضى » ، وليست لام القسم ، لأنها لا تدخل على المضارع ، إلا مع نون التوكيد .

وجمع بين حرفي التوكيد « اللام » والتأخير « سوف » ، للدلالة على أن العطاء كائن لا محالة ، وإن تأخّر لما في التأخير من الحكمة والمصلحة [1].

(١) ينظر : الكشاف للزمخشري (٤/٧٧١) وتفسير البيضاوي (٥/٥٠٢) .

** وقت تحقق هذا الوعد :

اختلف المفسرون في وقت تحقق هذا الوعد الوارد في هذه الآية : ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ﴾ ، على قولين :

القول الأول : حمله الجمهور على الآخرة ، ويكون المراد به : الثواب الذي لا يعلم كنهه إلاّ الله ﷻ ، والحوض ، والمقام المحمود والشفاعة ، وأن لا يبقى أحد من أمته من أهل التوحيد في النار ، والوسيلة ، والدرجة الرفيعة ، التي لا تكون لأحد سواه ﷺ .

روي عن ابن عباس ــ رضي الله عنهما ــ قال : « من رضاء محمد ﷺ ، أن لا يدخل أحد من أهل بيته النار » (١).

(١) رواه الطبري في جامع البيان (٢٣٢/٣٠) من طريق عبّاد بن يعقوب ، عن الحكَم بن ظُهَير ، عن السديّ ، عن ابن عباس . وأورده ابن كثير في تفسيره (٥٢٣/٥) وزاد نسبته لابن أبي حاتم . ولم أقف عليه في تفسير ابن أبي حاتم .
وهذا الأثر ضعيف ؛ لأن عبّاد ثقة في الحديث ، شيعي في الرأي . والحكم متروك الحديث .

وقال العلامة القرطبي : .وفي الحديث : لما نزلت هذه الآية ، قال النبي ﷺ : . إذاً والله لا أرضى وواحد من أمتي في النار . . الجامع لأحكام القرآن (٩٦/٢٠) . **أقول** : لم أقف عليه في كتب السنة ، حتى يمكن الحكم عليه .

قال العلامة ابن القيم : . وأما ما يغتر به الجهال ، من أنه ﷺ لا يرضى وواحد من أمته في النار، أو لا يرضى أن يدخل أحد من أمته النار، فهذا من غرور الشيطان لهم ، ولعبه بهم ، فإنه ــ صلوات الله وسلامه عليه ــ يرضى بما يرضى به ربه ــ تبارك وتعالى ــ وهو ﷻ يدخل النار من يستحقها من الكفار والعصاة ، ثم يحد لرسوله حداً يشفع فيهم ، ورسوله أعرف به وبحقه ، من أن يقول : لا أرضى أن يدخل أحد من أمتي النار. على أن يدعه فيها ، بل ربه ﷻ يأذن له ، فيشفع فيمن شاء الله أن يشفع فيه ، ولا يشفع في غير من أذن له فيه ورضيه. . التبيان في أقسام القرآن لابن القيم (صـ ٤٦ – ٤٧) .

وعن ابن عباس ، قال : « رضاه أن تدخل أمته الجنة كلهم » (١).

وروي عن ابن عباس ــ رضي الله عنهما ــ من وجه آخر ــ في قوله : ﴿ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ ﴾ ، قال : « لا يرضى محمد وأحد من أمته في النار » (٢).

ويدل على هذا ، ما أخرجه الإمام مسلم : عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ ــ رضي الله عنهما ــ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ تَلا قَوْلَ اللَّهِ ﷻ فِي إِبْرَاهِيمَ عليه السلام : ﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُۥ مِنِّي ۖ وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ { إبراهيم: ٣٦} ، وَقَوْلَ عِيسَى عليه السلام : ﴿ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ۖ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ { المائدة : ١١٨ }. فَرَفَعَ يَدَيْهِ وَقَالَ : « اللَّهُمَّ أُمَّتِي أُمَّتِي » وَبَكَى ، فَقَالَ اللَّهُ ﷻ : « يَا جِبْرِيلُ ، اذْهَبْ إِلَى مُحَمَّدٍ ــ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ ــ فَسَلْهُ مَا يُبْكِيكَ ؟ » فَأَتَاهُ جِبْرِيلُ عليه السلام فَسَأَلَهُ ، فَأَخْبَرَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِمَا قَالَ ، وَهُوَ أَعْلَمُ ، فَقَالَ اللَّهُ : « يَا جِبْرِيلُ اذْهَبْ إِلَى مُحَمَّدٍ فَقُلْ : إِنَّا سَنُرْضِيكَ فِي أُمَّتِكَ وَلا نَسُوءُكَ » (٣).

وقد سبق أن ذكرت ــ عند الحديث عن سبب نزول السورة ــ ما روي عن ابن عباس ــ رضي الله عنهما ــ قال : « عُرض على رسول الله ﷺ ما هو مفتوح على أمته من بعده كَفْراً كَفْراً ، فَسُرّ بذلك ، فأنزل الله : ﴿ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ ﴾ ، فأعطاه في الجنة ألف قصر من لؤلؤ ، ترابه المسك ، في كل

(١) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان (١٦٤/٢) ح (١٤٤٥) من طريق سعيد بن جبير ﷺ . ورجاله ثقات .
(٢) أورده العلامة السيوطي في الدر المنثور (٥٤٢/٨) وعزاه للخطيب في تلخيص المتشابه .
(٣) أخرجه مسلم في صحيحه : كتاب الإيمان ، باب (٨٧) دعاء النبي ﷺ لأمته وبكائه شفقة عليهم (١٩١/١) ح (٢٠٢) .

قصر ما ينبغي له من الأزواج والخدم » .

وقال علي ﷺ ، لأهل العراق : إنكم تقولون : إن أرجى آية في كتاب الله : ﴿ قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ { الزمر : ٥٣ } .

قالوا : إنا لنقول ذلك ، قال : ولكنا أهل البيت نقول : إن أرجى آية في كتاب الله : ﴿ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ ﴾ ، وهي الشفاعة [١].

وعن الحسن ﷺ أنه سُئل عن هذه الآية ، فقال : هي الشفاعة [٢].

وروي عن قتادة ﷺ في تفسير هذه الآية ، قال : ذلك يوم القيامة ، هي الجنة [٣].

** **القول الثاني** : حمل بعض العلماء تحقق هذا الوعد في الدنيا .

ويكون المراد به : النصر والظَفر بأعدائه يوم بدر ، ويوم فتح مكة ، ودخول الناس في الدين أفواجاً ، وكمال الدين ، وإعلاء كلمة الحق ، والتمكين في الأرض ، وما فُتح على الخلفاء الراشدين ﷺ ومَن بعدهم ، من أقطار الأرض

(١) أخرجه أبو نعيم أحمد بن عبد الله الأصبهاني ــ ت ٤٣٠هـ في حلية الأولياء (١٧٩/٣) دار الكتاب العربي ــ بيروت ، ط / الرابعة ١٤٠٥هـ ، وقال : هذا حديث لم نكتبه إلا من حديث حرب بن شريح ، ولا رواه عنه إلا عمرو بن عاصم ، وهو بصري ثقة . وأورده السيوطي في الدر المنثور (٥٤٣/٨) وزاد نسبته : لابن المنذر ، وابن مردويه .

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره (٣٤٤٣/١٠) رقم (١٩٣٧٦) .

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره (٣٤٤٣/١٠) رقم (١٩٣٧٥) وابن جرير في جامع البيان (٢٣٢/٣٠) بنحوه ، وأورده السيوطي في الدر المنثور (٥٤٣/٨) وزاد نسبته لعبد ابن حميد . وسنده حسن . ينظر : التفسير الصحيح ، موسوعة التفسير المَسْبُور من التفسير بالمأثور ، ، للدكتور / حكمت بن بشير بن ياسين (٦٤٤/٤) دار المآثر ــ المدينة المنورة ، ط / الأولى ١٤٢٠هـ ــ ١٩٩٩م .

شرقاً وغرباً ، وظهور أمة الإسلام [١].

** **والأولى ، حمل الآية على خيرات الدنيا والآخرة معاً ، وهو ما يؤيده ظاهرها ، لأنها مطلقة .**

قال العلامة الخازن : « وحمل الآية على ظاهرها من خيري الدنيا والآخرة معاً ، أولى ؛ **وذلك أن الله تعالى أعطاه في الدنيا** : النصر والظَفر على الأعداء ، وكثرة الأتباع ، والفتوح في زمنه وبعده ، إلى يوم القيامة ، وأعلى دينه ، وإن أمته خير الأمم ، وأعطاه في الآخرة الشفاعة العامة والخاصة ، والمقام المحمود ، وغير ذلك مما أعطاه في الدنيا والآخرة » [٢].

وقال العلامة ابن جزي : « والصحيح ، أنه وعد يعم كل ما أعطاه الله في الآخرة ، وكل ما أعطاه في الدنيا ، من النصر والفتوح ، وكثرة المسلمين ، وغير ذلك » [٣].

وقال العلامة ابن القيم : « ثم وعد الله ﷻ رسوله ﷺ بما تقر به عينه ، وتفرح به نفسه ، وينشرح به صدره ، وهو : أن يعطيه فيرضى .

وهذا يعم ما يعطيه من القرآن ، والهدى ، والنصر ، وكثرة الأتباع ، ورفع ذكره ، وإعلاء كلمته ، وما يعطيه بعد مماته ، وما يعطيه في موقف القيامة ، وما يعطيه في الجنة » [٤].

** **كما يشمل هذا أيضاً بقاء ذكره ﷺ** ، ولله در من قال [٥]:

(١) ينظر حول القولين : تفسير الماوردي (٤٧١/٤) والتفسير الكبير للرازي (١٩٢/٣١) وتفسير البحر المحيط (٤٨١/٨) وتفسير ابن كثير (٥٢٣/٥) .

(٢) تفسير الخازن (٢٥٨/٧) .

(٣) التسهيل لعلوم التنزيل (٢٠٤/٤) .

(٤) التبيان في أقسام القرآن لابن القيم (صـ ٤٦) .

(٥) القائل هو حسان بن ثابت ﷺ ، ينظر : ديوان حسان بن ثابت ، شرح عَبدأ علي مَهَنّا (صـ ٥٤)

أغَـرُّ عَلَيْـهِ لِلنُّبُـوَّةِ خَـاتَمٌ ... مِـنَ اللَّهِ مَشْـهُودٌ يَلُوحُ وَيُشْهَدُ

وضمَّ الإلهُ اسمَ النبيِّ إلى اسمِهِ ... إذا قَالَ في الخَمْسِ المُؤَذِّنُ أَشْهَدُ

وشَـقَّ لهُ منِ اسـمِهِ ليجـلهُ ... فذو العـرشِ محمودٌ وهذا محمدُ

** **فإن قيل : إن هذه العطايا ليست قاصرة على النبي ﷺ** ، وإنما حصلت له وللمؤمنين ، فَلِمَ لَمْ يقل : « ولسوف يعطيكم ربكم » بلفظ الجمع ؟

** **فالجواب من وجهين :**

أحدهما : أنه ﷺ المقصود ، والمؤمنون أتباع له .

وثانيهما : أن تكريم الله ﷻ لأصحاب وأتباع النبي ﷺ ، هو في الحقيقة تكريم للنبي ﷺ ، وذلك لعلم الله ﷻ أنه ﷺ قد بلغ في الشفقة عليهم مبلغاً عظيماً ، إلى حيث يفرح بإكرامهم ، فوق ما يفرح بإكرام نفسه [١].

✿ ✿ ✿ ✿ ✿ ✿ ✿

** قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ . وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ . وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَىٰ ﴾ :

عدد الله ﷻ نعمه على رسوله ﷺ فيما مضى من عمره ، ليقيس عليه المترقب من فضل الله ﷻ فيما يستقبل ، لئلا يتوقع إلاّ الحسنى وزيادة الخير والكرامة، ولا يضيق صدره، ولا يقل صبره، بل تطيب نفسه، ويقوى رجاؤه[٢]. وكأنه قال: ما تركناك وما قلیناك قبل أن اخترناك واصطفيناك ، فتظن أنا بعد الرسالة نهجرك ونخذلك .

قال العلامة الآلوسي : « تعديد لما أفاض عليه ﷺ ، من أول أمره إلى

دار الكتب ــ بيروت ، ط / الثانية ١٤١٤هـ - ١٩٩٤ .

(١) ينظر : التفسير الكبير للرازي (١٩٣/٣١) .

(٢) ينظر : الكشاف (٧٧٢/٤) والتسهيل لعلوم التنزيل (٢٠٤/٤) .

وقت النزول ، من فنون النعماء العظام ، ليستشهد بالحاضر الموجود ، على المترقب الموعود ، فيزداد قلبه الشريف ، وصدره الرحيب ، طمأنينة وسروراً وانشراحاً وحبوراً ، ولذا فصلت الجملة » [١]. أي : لم تعطف على ما قبلها .

ويقول صاحب الظلال : « ويمضي سياق السورة يذكر الرسول ﷺ ما كان من شأن ربه معه منذ أول الطريق ، ليستحضر في خاطره جميل صنع ربه به ، ومودته له ، وفيضه عليه ، ويستمتع باستعادة مواقع الرحمة والود والإيناس الإلهي . وهو متاع فائق تحييه الذكرى على هذا النحو البديع » [٢].

وعن قتادة ﷺ في قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ . وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ . وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَىٰ ﴾ قال : كانت هذه منازل رسول الله ﷺ قبل أن يبعثه الله ﷻ » [٣].

** **والهمزة في قوله تعالى :﴿ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ﴾** ، لإنكار النفي ، وتقرير المنفي على أبلغ وجه ، فالاستفهام هنا للتقرير ، والمعنى : لقد كنت ــ أيها الرسول الكريم ــ يتيماً فآواك الله ﷻ بفضله وكرمه ، وتعهدك برعايته وحمايته وعصمته .

** **والوجود في قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ ﴾** بمعنى العلم ، والكاف ، هي المفعول الأول لـ « وجد » ، و« يتيماً » مفعول ثان ، والوجود من الله بمعنى العلم . والمعنى : ألم يعلمك الله يتيماً فآوى [٤].

قال العلامة الراغب : « الوجود أضرب : وجود بإحدى الحواس الخمس ،

---

(١) روح المعاني (١٦١/٣٠) وينظر : تفسير أبي السعود (١٧٠/٩) .

(٢) في ظلال القرآن (٣٩٢٧/٦) .

(٣) أخرجه الطبري في جامع البيان (٢٣٣/٣٠) .

(٤) ينظر : الكشاف (٧٧٢/٤) والتفسير الكبير للرازي (١٩٥/٣١) وتفسير أبي السعود (١٧٠/٩) .

نحو : وجدتُ زبداً ، ووجدت طعمه ، ووجدت صوته ، ووجدت خشونته .

ووجود بقوة الشهوة ، نحو : وجدت الشبع . ووجود بقوة الغضب ، كوجود الحزن والسخط .

ووجود بالعقل ، أو بواسطة العقل ، كمعرفة الله تعالى ، ومعرفة النبوة .

وما ينسب إلى الله تعالى من الوجود ، فبمعنى العلم المجرد ، إذ كان الله منزهاً عن الوصف بالجوارح والآلات » [١].

وقال العلامة الآلوسي : « وجدته » ، بمعنى : أصبته على صفة ، ويراد بالوجود فيه العلم مجازاً بعلاقة اللزوم [٢].

وقال العلامة ابن عاشور : « والاستفهام تقريري ، وفعل « يجدك » مضارع « وجد » ، بمعنى « ألفى وصادف » ، وهو الذي يتعدى إلى مفعول واحد ، ومفعوله ضمير المخاطب ، و« يتيماً » حال ، وكذلك « ضالاً » و« عائلاً » [٣].

** وذكر المفسرون في تفسير اليتيم وجهين :

الوجه الأول : أن عبد الله بن عبد المطلب ، والد النبي ﷺ ، توفي وأم رسول الله ﷺ حامل

به ، ثم ولد رسول الله ﷺ ، فكان مع جده عبد المطلب ، ومع أمه آمنة ، فهلكت أمه آمنة ، وهو ابن ست سنين ، فكان مع جده ، ثم هلك جده بعد أمه بسنتين ، ورسول الله ابن ثمان سنين ، وكان عبد المطلب يوصي أبا طالب به ، لأن عبد الله وأبا طالب كانا من أم واحدة ، فلما توفى جده ، كفله عمه أبو طالب ، وكان عمره ﷺ ثمانية أعوام ، إلى أن بعثه الله بالنبوة ، فقام بنصرته مدة مديدة ،

(١) المفردات في غريب القرآن (صـ ٥٢٨) مادة . وجد . .
(٢) ينظر : روح المعاني (١٦١/٣٠) .
(٣) التحرير والتنوير (٣٩٩/٣٠) .

ثم توفي أبو طالب بعد ذلك ، فلم يظهر على رسول الله ﷺ يتم البتة ، فذكّره الله تعالى هذه النعمة .

ومعنى قوله : ﴿ فَآوَى ﴾ ، أي : جعل لك مأوى تأوي إليه ، ومنزلاً تنزله ، حيث ضمّك إلى عمك أبي طالب ، حتى أحسن تربيتك ، وكفاك المؤنة .

وقيل المعنى : ألم يجدك يتيماً أبتك المراضع ، فآواك من مرضعة تحنو عليك ، بأن رزقها بصحبتك الخير والبركة ، حتى أحبتك وتكفلتك .

** **الوجه الثاني : أنه أراد باليتيم ، الذي لا مثيل له ، ولا نظير له** ، من قولهم : درة يتيمة ، إذا لم يكن لها مثل . وروي هذا عن مجاهد .

والمعنى : ألم يجدك واحداً في قريش عديم النظير ، فآواك إلى نفسه ، واختصك برسالته .

أو ألم يجدك الله ﷻ واحداً في شرفك ، لا نظير لك ، فآواك بأصحاب يحفظونك ويحوطونك .

أو جعلك مأوى الأيتام بعد أن كنت يتيماً ، وكفيل الأنام بعد أن كنت مكفولاً، تذكيراً بنعمه عليه [١].

قال العلامة الماوردي عن هذا الوجه الثاني : « وهو محتمل » [٢].

** **أقول : والوجه الأول أرجح ، لثلاثة أمور :**

الأول : أن هذا هو الموافق لظاهر ألفاظ الآية . ويؤيد هذا القاعدة التفسيرية:

(١) ينظر : النكت والعيون للماوردي (٤٧٢/٤) والكشاف (٧٧٢/٤) والتفسير الكبير للرازي (١٩٥/٣١) والجامع لأحكام القرآن للقرطبي (٩٦/٢٠) وتفسير ابن كثير (٥٢٤/٤) وروح المعاني (١٦١/٣٠ – ١٦٢) .
(٢) النكت والعيون للماوردي (٤٧٢/٤) .

﴿ لا يجوز العدول عن ظاهر القرآن إلا بدليل يجب الرجوع إليه ﴾.

فالأصل في نصوص القرآن الكريم ــ وكذا السنة النبوية ــ أن تحمل على ظواهرها ، وتفسر على حسب ما يقتضيه ظاهر اللفظ ، ولا يجوز أن يُعدل بألفاظ الوحي عن ظاهرها إلا بدليل واضح يجب الرجوع إليه .

الثاني : أن فيه إبقاء للفظ « اليتيم » على حقيقته ، أما الوجه الثاني ، ففيه صرف للفظ عن معناه الحقيقي إلى المعنى المجازي ، من غير داع .

والأصل في الكلام أن يحمل على الحقيقة ، ولا يجوز العدول به عنها وله فيها محمل صحيح ، فيجب حمل نصوص الآية وتفسيرها على حقائقها ، خاصة وأن المعنى الحقيقي غير ممتنع ، بل يتوجب ، موافقة لواقع حاله ﷺ ، وذلك إعمالاً لقاعدة :**﴿ يجب حمل نصوص الوحي على الحقيقة ﴾** [١].

قال العلامة الزمخشري : « ومن بدع التفاسير : أنه من قولهم : درّة يتيمة، وأن المعنى : ألم يجدك واحداً في قريش عديم النظير ، فآواك » [٢].

وقال العلامة الشوكاني ــ بعد ما ذكر قول مجاهد ــ: «وهو بعيد جداً»[٣].

الثالث : قوله تعالى بعد ذلك : ﴿ فَأَمَّا ٱلْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ﴾ ، يؤيد أن المراد باليتيم هنا المعنى الحقيقي الشرعي . ويقوي ذلك القاعدة التفسيرية : **﴿ القول الذي تؤيده قرائن في السياق مرجَّح على ما خالفه ﴾** [٤].

---

(١) **ينظر حول هذه القاعدة واستعمالها في الترجيح** : جامع البيان للطبري (٣٦٥/١) والكشاف للزمخشري (٣٢٦/٣) ومجموع الفتاوى (٤٧٣/٢٠) والتسهيل لابن جزي (٩/١) وبدائع الفوائد لابن القيم (٢٠٥/٤) والبحر المحيط في أصول الفقه للزركشي (٤٤٩/١) ومحاسن التأويل للقاسمي (٢٢٢/١ ، ٢٦٣) وقواعد الترجيح للحربي (٣٨٧/٢) .

(٢) الكشاف للزمخشري (٧٧٢/٤) .

(٣) فتح القدير (٤٥٨/٥) .

(٤) **ينظر حول هذه القاعدة واستعمالها في الترجيح** : جامع البيان (١٢٩/٣) ، (١٦١/٩) والمحرر

والمعنى : كما كنت يتيماً فحفظناك من ذل اليتامى وقهرهم ، وقيضنا لك من يحميك ويرعاك ، فكذلك عليك أن تواسى اليتيم ، وأن تكرمه ، وأن تكون رفيقاً شفيقاً به ، وهذا تكليف له ﷺ ولأمته من بعده .

** **قرأ الجمهور** : ﴿ فَـَٔاوَىٰ ﴾ **رباعياً** ، **وقرئ** : « فأوى » ثلاثياً ، على معنيين : إما من « أواه » بمعنى « آواه » الرباعي ، وإما من « أوى له » ، أي : رحمه [١].

✿ ✿ ✿ ✿ ✿ ✿

الوجيز (٥٤٣/٢) والجامع لأحكام القرآن (٢٩١/٣) والبرهان في علوم القرآن (٢٩١/١ ، ٢٩٤) ومحاسن التأويل (٢٦٢/١) وأضواء البيان (٧٥/١ ، ١٤١) وقواعد التفسير للسبت (٦٥٣/٢) وقواعد الترجيح للحربي (٢٩٩/١) .

(١) **قرأ بها** : أبو الأشهب العقيلي . ينظر : الكشاف (٧٧٢/٤) وتفسير البحر المحيط (٤٨١/٨) ولم أقف عليها في كتب شواذ القراءات .

الحكمة من نشأة النبي ﷺ يتيماً

إن الحكم العليا لا يستطيع البشر الوقوف على حقيقتها ، لأنه ﷻ ﴿ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا . إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُۥ يَسْلُكُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ رَصَدًا ﴾ { الجن : ٢٦ ، ٢٧ } .

ولقد ذكر بعض العلماء في حكمة ولادة النبي ﷺ وتربيته يتيماً ، مجموعة من الحكم ، قد تدخل في حيز القبول ، وقد لا تدخل ، ولا يمكن لنا أن نقطع أنها المراد من إرادة الله ﷻ ذلك لنبيه ﷺ .

يقول الأستاذ سيد قطب : « إن بعض الباحثين في حكمة التشريعات والعبادات الإسلامية ، يندفعون أحياناً في تعليل هذه الأحكام ، بصورة توحي بأنهم استقصوا هذه الحكمة ، فلم يعد وراء ما استقصوه شيء !! وهذا منهج غير سليم في مواجهة النصوص القرآنية ، والأحكام التشريعية ، ما لم يكن قد نص على حكمتها نصاً .

وأولى أن نقول دائماً : إن هذا ما استطعنا أن نستشرفه من حكمة النص أو الحكم . وأنه قد تكون دائماً هنالك أسرار من الحكمة لم يؤذن لنا في استجلائها !! وبذلك نضع عقلنا البشري ــ في مكانه ــ أمام النصوص والأحكام الإلهية ، بدون إفراط ولا تفريط » [١].

**** وقد ذكر العلماء حكماً لنشأته ﷺ يتيماً ، ولعل من أهمها :**

(١) ليتولى الله ﷻ أمره ﷺ ، ولا يكون لمخلوق عليه فضل .

قيل لجعفر بن محمد الصادق : لِمَ يُتم النبي ﷺ من أبويه ؟ فقال: لئلا يكون

(١) في ظلال القرآن (٦٦٩/٢) .

لمخلوق عليه حق [١].

قال الإمام الرازي : « إن من كان له أب أو أم ، كان اعتماده عليهما ، فسلب عنه ﷻ الولدان ، حتى لا يعتمد من أول صباه إلى آخر عمره على أحد سوى الله » [٢].

وعلى هذا ، فيتمه ﷺ راجع إلى قوله تعالى: ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ﴾، أي: ليتولى الله تعالى أمره من صغره ، فكان رغم يتمه سيد شباب قريش ، حيث قال عمه ــ عند خطبته خديجة لزواجه بها ــ : « فتى لا يعادله فتى من قريش ، حلماً وعقلاً وخلقاً ، إلا رجح عليه » [٣]. فكان يتمه لإبراز فضله ، لأن يتيم الأمس، أصبح سيد الغد ، وكافل اليتامى [٤].

(٢) إثبات أن الآباء والأهل لا يستطيعون أن يصنعوا مستقبل أبنائهم .

« لقد نال اليتم صاحب الرسالة ؛ لإثبات أن الآباء والأهل لا يستطيعون أن يديروا مستقبل أبنائهم ، ولو كانوا أحياء ، لأن النبوة ليست شيئاً مكتسباً ، وإنما هي اختيار واصطفاء ، قال تعالى : ﴿ ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ ﴾ { الأنعام : ١٢٤ } .

وكم من يتامى تبؤوا أعلى الدرجات ، وهناك من عاشوا في أحضان آبائهم

(١) ينظر : المحرر الوجيز (٤٩٤/٥) والجامع لأحكام القرآن للقرطبي (٩٦/٢٠) .
(٢) التفسير الكبير للرازي (١٩٨/٣١) .
(٣) قال أبو طالب في خُطبة نكاح النبي ﷺ : « أَمّا بَعْدُ : فَإِنّ مُحَمّداً ممّنْ لا يُوَازَنُ بِهِ فَتًى مِنْ قُرَيْشٍ إلا رَجَحَ بِهِ شَرَفاً وَنُبْلاً وَفَضْلاً وَعَقْلاً ، فَإِنْ كَانَ فِي الْمَالِ قُلّ ، فَإِنّمَا ظِلّ زَائِلٌ وَعَارِيّةٌ مُسْتَرْجَعَةٌ ، وَلَهُ فِي خَدِيجَةَ بِنْتِ خُوَيْلِدٍ رَغْبَةٌ ، وَلَهَا فِيهِ مِثْلُ ذَلِكَ » . الروض الأنف في شرح السيرة النبوية لابن هشام ، للإمام / أبي القاسم عبد الرحمن بن عبد الله بن أحمد السهيلي ــ ت ٥٨١هـ ، تعليق / طه عبد الرءوف سعد (٣٢١/١) مكتبة الكليات الأزهرية ــ القاهرة ، بدون .
(٤) ينظر : أضواء البيان (٥٥٧/٨ ، ٥٥٩) .

** قوله تعالى : ﴿ وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ ﴾ :

هذا بيان لنعمة أخرى أنعم الله ﷻ بها على نبيه محمد ﷺ .

وقد اتفق جمهور العلماء [١] على : أنه ﷺ قد فطر على الإيمان بالله ﷻ ، وما كفر بالله لحظة واحدة ، بدليل قوله تعالى : ﴿ وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ . مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ﴾ { أول سورة النجم }. مع اعتقاده ﷺ قبل النبوة ، أن قومه ليسوا على الدين الحق ، بدليل أنه لم يشاركهم في عبادتهم للأصنام ، ولا في السلوك الذي يتنافى من مكارم الأخلاق .

قال العلامة النسفي : « ولا يجوز أن يفهم به عدول عن حق ، ووقوع في غيى ، فقد كان ﷺ من أول حاله إلى نزول الوحي عليه ، معصوماً من عبادة الأوثان ، وقاذورات أهل الفسق والعصيان » [٢].

وقال العلامة الخازن : « ولا يلتفت إلى قول من قال : إنه ﷺ كان قبل النبوة على ملة قومه ، فهداه الله إلى الإسلام ، لأن نبينا ﷺ ، وكذلك الأنبياء قبله ــ عليهم السلام ــ منذ ولدوا نشئوا على التوحيد ، والإيمان قبل النبوة وبعدها ، وأنهم معصومون قبل النبوة من الجهل بصفات الله تعالى وتوحيده ، ويدل على ذلك أن قريشاً لما عابوا النبي ﷺ ، ورموه بكل عيب سوى الشرك وأمر الجاهلية ، فإنهم لم يجدوا لهم عليه سبيلاً ، إذ لو كان فيه ، لما سكتوا عنه ، ولنقل ذلك ، فبرأه الله تعالى من جميع ما قالوه فيه وعيروه به » [٣].

** هذا ، وللمفسرين في معنى هذه الآية كلام طويل ، وأقوال كثيرة ، نختار منها ما يلي :

(١) ينظر : التفسير الكبير للرازي (١٩٥/٣١) .
(٢) تفسير النسفي (٣٤٥/٤) .
(٣) تفسير الخازن (٢٥٩/٧) .

** القول الأول : أن المراد بالضلال هنا : الغفلة [١] عن أحكام الشرائع ، والحيرة في الوصول إلى الحق ، ومعرفة أصح العقائد .

والمعنى : لقد كنت ــ أيها الرسول ــ لا تدري ما الكتاب ولا الإيمان ، فعلمك ما لم تكن تعلم ، وأنزل عليك القرآن العظيم ، ووفقك لأحسن الأعمال .

أو غافلاً عما يراد بك من أمر النبوة ، فهداك . أي : أرشدك [٢]

قال تعالى : ﴿ وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ۚ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴾ { النساء : ١١٣ } ، وقال : ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ﴾ { يوسف : ٣ } ، وقال : ﴿ وَمَا كُنتَ تَرْجُوٓاْ أَن يُلْقَىٰٓ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبُ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِّلْكَٰفِرِينَ ﴾ { القصص : ٨٦ } ، وقال : ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ { الشورى : ٥٢ }.

قال العلامة النسفي : « أي : غير عالم ولا واقف على معالم النبوة ، وأحكام الشريعة ، وما طريقة السمع ، فعرفك الشرائع والقرآن » [٣].

وقال الإمام محمد عبده ــ عند تفسيره لهذه الآية ــ : « نشأ ﷺ موحداً ، لم يسجد لصنم ، وطاهر الخلق ، لم يرتكب فاحشة ، حتى عرف بين قومه

(١) قال تعالى : ﴿ لَّا يَضِلُّ رَبِّى وَلَا يَنسَى ﴾ { طه : ٥٢ } ، أي : لا يغفل . ينظر : الجامع لأحكام القرآن (٩٦/٢٠) .
(٢) ينظر : الكشاف للزمخشري (٧٧٢/٤) والجامع لأحكام القرآن (٩٦/٢٠) وفتح القدير (٤٥٨/٥) .
(٣) تفسير النسفي (٣٤٥/٤) .

بالصادق الأمين ، فضلال الشرك ، وضلال الهوى في العمل ، كانا بعيدين عن ذاته الكريمة ، يرهبان الدنو من نفسه القويمة ، نزهه الله عنهما من أول أمره ، ليعلي منزلته عند من يرسل إليهم ، فيسمعوا قوله ، ويهتدوا بهديه .

ولكن للضلال أنواع أخر ، منها : اشتباه المآخذ على النفس ، حتى تأخذها الحيرة فيما ينبغي أن تختار » .

ثم قال : « فهذا هو الذي عناه الله ﷻ بالضلال في هذه الآية الكريمة، وما أعظم الهداية في ذلك الضلال !! وما أجدره بالكُمّل من الرجال !! » .

ثم قال : وقد هداه ﷻ إلى الحق بعد هذه الحيرة ، بأن « اختار له ديناً قويماً ، وعلمه كيف يرشد قومه ، وسن له الطريق في تخليصهم ، وتخليص العالم مما كان فيه من فساد العقل ، وسوء العمل ، وهداه إلى وصف ذاته بما يليق بذاته ، وأي نعمة أكبر وأجل من هذه النعمة ؟!

هذا هو معنى قوله تعالى : ﴿ وَوَجَدَكَ ضَآلّاً فَهَدَىٰ ﴾ ، وهو معنى قوله تعالى في سورة الشورى : ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ { الشورى : ٥٢ }.

وليس في وصف النبي ﷻ بالضال على هذا المعنى ، شين له ، أو حط من شأنه ، بل هذا فخره ﷺ ، وإكليل مجده ، لم يكن عالماً فعلمه الله ، ولم يكن مطلعاً على الغيب ، فأطلعه الله { أي : على ما يريد إطلاعه عليه} ، وبهذا التفسير نستغني عن خلط المفسرين في التأويل » [1].

** **القول الثاني : أن معنى الآية : ﴿ وَوَجَدَكَ ضَآلّاً ﴾** ، أي : وجدك في

(١) تفسير جزء عم ، للإمام / محمد عبده (ص٨٤ – ٨٥) .

قوم ضلال ، فهداهم الله بك ، أو فهداك إلى إرشادهم [1].

القول الثالث : أنه ﷻ ضل وهو صغير عن جده في شعاب مكة ، فرآه أبو جهل منصرفاً عن أغنامه ، فرده لجده ، وهو متعلق بأستار الكعبة يتضرع إلى الله ﷻ في أن يرد إليه محمداً ، ويقول :

يا رب ردَّ ولدي محمداً اردده ربي واصطنع عندي يدا

وهذا مروي عن ابن عباس ــ رضي الله عنهما ــ [2].

القول الرابع : أنه ﷻ ضل في طريق الشام ، حين خرج به أبو طالب ، فرده إلى القافلة روي هذا عن ابن المسيب [3].

وعلى هذا القول والذي قبله ، يكون الضلال بمعنى الضياع .

** **وهناك أقوال أخرى ضعيفة** ، كقولهم : ﴿ ضَآلّاً ﴾ ، أي : وجدك طالباً للقبلة ، فهداك إليها . ويكون الضلال بمعنى الطلب ، لأن الضال طالب ، أي : يطلب ضالته المنشودة .

وقولهم : وجدك ضالاً عن الهجرة ، فهداك إليها .

وقيل غير ذلك، حتى أوصلها بعض المفسرين إلى عشرين قولاً[4].

** وهذه الأقوال ، وإن كان لفظ الآية يحتمل بعضها ، إلا أن الذي ترتاح إليه النفس ، ويطمئن إليه القلب ، هو القول الأول ؛ لأن الرسول ﷻ قد نشأ في بيئة منحرفة في عقائدها وأخلاقها ، فلم تطمئن نفسه الكريمة إليها ، إلا أنه كان حائراً

(١) ينظر : الجامع لأحكام القرآن (٩٦/٢٠) وفتح القدير (٤٥٨/٥) وروح المعاني (١٦٢/٣٠) .
(٢) ينظر : تفسير البغوي (٤٩٩/٤) وزاد المسير (١٥٨/٩) ومفاتيح الغيب للرازي (١٩٦/٣١) وتفسير ابن كثير (٥٢٤/٤) .
(٣) ينظر : المراجع السابقة .
(٤) ينظر : تفسير الماوردي (٤٧٢/٤) والكشاف (٧٧٢/٤) والمحرر الوجيز (٤٩٤/٥) ومفاتيح الغيب للرازي (١٩٦/٣١) .

في الوصول إلى الدين الحق ، فهداه الله ﷻ إليه ، والهداية إلى الحق بعد الحيرة والضلال عنه ، منة عظمى ، ونعمة كبرى .

يقول الأستاذ سيد قطب : « والهداية من حيرة العقيدة ، وضلال الشعاب فيها ، هي المنة الكبرى ، التي لا تعدلها منة ، وهي الراحة والطمأنينة من القلق ، الذي لا يعدله قلق ، ومن التعب الذي لا يعدله تعب .

ولعلها كانت بسبب مما كان رسول الله ﷺ يعانيه في هذه الفترة ، من انقطاع الوحي ، وشماتة المشركين ، ووحشة الحبيب من الحبيب ، فجاءت هذه تذكره وتطمئنه على أن ربه لن يتركه بلا وحي في التيه ، وهو لم يتركه من قبل في الحيرة والتيه !! » [١].

✿ ✿ ✿ ✿ ✿ ✿ ✿

** قوله تعالى : ﴿ وَوَجَدَكَ عَآئِلاً فَأَغْنَىٰ ﴾ :

اختلف المفسرون في معنى كلمة ﴿ عَآئِلاً ﴾ ، على قولين: فقيل ، هي بمعنى الفقر، وقيل: ﴿ عَآئِلاً ﴾ ذا عيال . وقد سبق بيان ذلك في المفردات .

وقرأ الجمهور : ﴿ عَآئِلاً ﴾ ، وقرئ : « عَيِّلاً » بكسر الياء المشددة ، مثل: طيِّب وهيِّن وسيِّد [٢].

** واختلف المفسرون في المراد بالغنى هنا على أقوال ، منها :

القول الأول : أن المراد به غنى النفس ، فقد منحه الله ﷻ نفساً عفيفة قانعة بما أعطاه ﷻ من رزق ، حتى ولو كان كفافاً . **وهذا هو الغنى الأكبر والأعظم** .

(١) في ظلال القرآن (٣٩٢٧/٦) .

(٢) هي قراءة : محمد بن السميقع ، واليماني . ينظر : مختصر شواذ القرآن لابن خالويه (صـ ١٧٥) والجامع لأحكام القرآن للقرطبي (١٠٠/٢٠) وتفسير البحر المحيط (٤٨١/٨) وفتح القدير (٤٥٨/٥).

قال مقاتل : فرضاك بما أعطاك من الرزق . وقال الكلبي : قنعك بالرزق . وقال ابن عطاء : ووجدك فقير النفس ، فأغنى قلبك [١].

قال العلامة الآلوسي : « وقيل المراد : قنعك ، وأغنى قلبك ، فإن غنى القلب هو الغنى ، وقد قيل : من عدم القناعة ، لم يفده المال غني » [٢]. واختار هذا القول جماعة من العلماء .

قال العلامة الفراء : لأنه ﷺ لم يكن غنياً عن كثرة مال ، ولكن الله ﷻ رضاه بما آتاه [٣]. وذلك حقيقة الغنى .

وقال العلامة الراغب [٤] : « قوله تعالى : ﴿ وَوَجَدَكَ عَآئِلاً فَأَغْنَىٰ ﴾ ، أي : أزال عنك فقر النفس ، وجعل لك الغنى الأكبر ، المَعْنَى بقوله ﷺ : « لَيْسَ الْغِنَى عَنْ كَثْرَةِ الْعَرَضِ [٥].

(١) ينظر : زاد المسير(١٥٩/٩) والتفسير الكبير للرازي (١٩٨/٣١) والجامع لأحكام القرآن للقرطبي (٩٩/٢٠) وفتح القدير (٤٥٨/٥) .

(٢) روح المعاني (١٦٣/٣٠) .

(٣) ينظر : معاني القرآن للفراء (٢٧٤/٣) .

(٤) المفردات للراغب (صـ ٣٥٧) مادة « عيل » .

(٥) **قوله** : « كَثْرَةِ الْعَرَضِ » ، المراد به : حطام الدنيا من الأمتعة ونحوها ، أو ما يصيبه الإنسان من حظوظ الدنيا .

قال الإمام النووي : « العرض هنا بفتح العين والراء جميعاً ، وهو متاع الدنيا .

ومعنى الحديث : الغنى المحمود ، غنى النفس وشبعها ، وقلة حرصها ، لا كثرة المال مع الحرص على الزيادة ، لأن من كان طالباً للزيادة لم يستغن بما معه، فليس له غنى». شرح النووي على صحيح مسلم (١٤٠/٧) .

وقال الحافظ ابن حجر : العرض هو ما ينتفع به من متاع الدنيا ، ويطلق بالاشتراك على ما يقابل الجوهر ، وعلى كل ما يعرض للشخص من مرض ونحوه .

ثم نقل عن ابن فارس قوله : العرض بالسكون كل ما كان من المال غير نقد ، وجمعه عروض ، وأما بالفتح فما يصيبه الإنسان من حظه في الدنيا، قال تعالى : ﴿تُرِيدُونَ

وَلَكِنَّ الْغِنَى غِنَى النَّفْسِ » [١].

ويؤيده ما رواه مسلم ، عن عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ ــ رضي الله عنهما ــ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ : « قَدْ أَفْلَحَ مَنْ أَسْلَمَ ، وَرُزِقَ كَفَافًا [٢]، وَقَنَّعَهُ اللَّهُ بِمَا آتَاهُ » [٣].

وقال العلامة الرازي : « أغناك بالقناعة ، فصرت بحال يستوي عندك الحجر والذهب ، لا تجد في قلبك سوى ربك ، فربك غني عن الأشياء ، لا بها ، وأنت بقناعتك استغنيت عن الأشياء » [٤].

القول الثاني : أن المراد به ، الغنى المادي عن الاحتياج إلى الناس ، بما أجراه على يديه ﷺ من الربح في التجارة ، وبما وهبته له زوجه خديجة ــ رضي الله عنها ــ من مالها ، فعاش ﷺ مستور الحال ، غير محتاج إلى من ينفق عليه[٥].

القول الثالث : « وجدك فقيراً إلى رحمة الله وعفوه ، فأغناك ، بمغفرته لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر » [٦].

عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْآخِرَةَ ﴾ { الأنفال : ٦٧ }، وقال تعالى : ﴿ فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَـٰذَا ٱلْأَدْنَىٰ ﴾ { الأعراف : ١٦٩ } . ينظر : فتح الباري (٢٧٢/١١) .

(١) أخرجه البخاري في صحيحه : كتاب الرقاق ، باب (١٥) الْغِنَى غِنَى النَّفْسِ الحديث (٢٣٦٨/٥) ح (٦٠٨١) من حديث أبي هريرة ﷺ .

(٢) **قال الإمام النووي** : « الْكَفَاف : الْكِفَايَة بِلَا زِيَادَة وَلَا نَقْص . وفيه فضيلة هذه الأوصاف ، وقد يحتج به لمذهب من يقول : الكفاف أفضل من الفقر ومن الغنى » . شرح مسلم على شرح النووي (١٤٥/٧) .

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه : كتاب الزكاة ، باب (٤٣) في الكفاف والقناعة (٧٣٠/٢) ح (١٠٥٤) .

(٤) التفسير الكبير للرازي (١٩٨/٣١) .

(٥) ينظر : تفسير البيضاوي (٥٠٣/٥) وتفسير النسفي (٣٤٥/٤) وفتح القدير (٤٥٨/٥) وتفسير أبي السعود (١٧١/٩) .

(٦) المفردات للراغب (صـ ٣٥٧) مادة « وجد » .

القول الرابع : وجدك فقيراً من الحجج والبراهين ، فأنزل الله عليك القرآن، وعلمك مالم تكن تعلم ، فأغناك بذلك .

القول الخامس : أغناك بما فتح لك من الفتوح ، وأفاء عليك من الغنائم [١].

أقول : إن ذكر الغنائم هنا فيه نظر ، بل بعيد جداً ، لأن سورة الضحى مكية بالإجماع ، وتتحدث عن شيء حدث للنبي ﷺ بالفعل ، وليس متوقعاً حدوثه ــ وإن قال بعض المفسرين : إن هذا لما كان « معلوم الوقوع ، كان كالواقع » [٢]ــ ، والجهاد إنما شُرع بالمدينة ، وعليه فالغنائم إنما كانت بعد الهجرة .

**** وأرى ــ والله أعلم ــ أن الآية عامة ، تشمل هذه الأقوال ، عدا القول الخامس** ، فيكون المراد بالغنى عمومه ، وإن كان التعبير بالفعل ﴿ فَأَغْنَىٰ ﴾ يدل على التجدد والحدوث ، فالواقع أن غناه ﷺ كان قبل كل شيء ، هو غنى النفس ، والاستغناء عن الناس ، ويكفي أنه ﷺ كان أجود الناس .

وقد جمع الله ﷻ له ﷺ بين الفقير الصابر ، والغنى الشاكر ، ليرسم ﷺ القدوة المثلى في الحالتين للأمة .

✿ ✿ ✿ ✿ ✿ ✿ ✿

---

(١) ينظر : النكت والعيون للماوردي (٤٧٣/٤) والتفسير الكبير للرازي (١٩٧/٣١) والجامع لأحكام القرآن للقرطبي (١٠٠/٢٠) وتفسير النسفي (٣٤٥/٤) وفتح القدير (٤٥٨/٥) .

(٢) التفسير الكبير للرازي (١٩٧/٣١) .

الحكمة من نشأة النبي ﷺ فقيراً

وكما ولد النبي ﷺ يتيماً ، فقد عاش فقيراً ، فلم يترك أبوه شيئاً يعد ثروة ، فقد ترك خمسة جمال ، وبعض الشاة ، وأمَة ، اسمها أم أيمن ، التي حضنته بعد وفاة أمه آمنة .

ولم يكن الفقر مذلة ، فقد وجده ربه عائلاً فأغناه .

** لقد نشأ النبي ﷺ فقيراً لحكم ، لعل منها :

(١) نشأ النبي ﷺ فقيراً ، حتى لا يفهم البعض أن حديثه عن الدعوة ، من ورائه السعي إلى الصدارة والمكانة والزعامة ، فالناس قد ألفوا أن الغنى والزعامة صنوان .

يقول الدكتور البوطي : « لقد شاءت إرادة الله ﷻ أن ينشأ رسوله ﷺ يتيماً، تتولاه عناية الله وحدها ، بعيداً عن الذراع التي تمعن في تدليله ، والمال الذي يزيد تنعيمه ، حتى لا تميل به نفسه إلى مجد المال والجاه ، وحتى لا يتأثر بما حوله من معنى الصدارة والزعامة ، فتلتبس على الناس قداسة النبوة بجاه الدنيا ، وحتى لا يحسبوه يصطنع الأول ، ابتغاء الوصول إلى الثاني » [١].

(٢) لعل من أبرز الحكم من هذه النشأة له ﷺ ، هو الاعتماد على النفس ، والسعي من أجل الرزق ، وقد ثبت في الصحيح أن أطيب ما يأكل الإنسان ، ما كان من عمل يده .

قال ﷺ : « ما أكل أحدٌ طعاماً قط ، خيراً من أن يأكل من عمل يده ، وإن

(١) فقه السيرة للبوطي (صـ ٥١) .

نبي الله داود عليه السلام كان يأكل من عمل يده » [١].

لقد كان عمل أكثر المرسلين برعي الغنم ، وكذا كان محمد ﷺ يرعى الغنم، ويقوم بالتجارة .

(٣) في نشأته ﷺ فقيراً ، ما ينبيء إلى الرحمة بالفقراء ، ومد يد العون لهم.

« لقد جمع الله ﷻ على رسوله ﷺ في أول حياته بين اليتم والفقر ، وكلاهما ضعف ، حتى يزداد بالله قوة ، وحتى يعايش أحاسيس هؤلاء المستضعفين من اليتامى والفقراء ، الذين هم في الصفوف الأولى من المؤمنين برسالته ، والمدافعين عنها ، والمجاهدين في سبيلها ، ولذلك نجد الآيات التالية لقوله تعالى : ﴿ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ . وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ . وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغْنَىٰ ﴾ ، تؤكد هذا المعنى : ﴿ فَأَمَّا ٱلْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ . وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنْهَرْ . وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴾ » [٢].

إن اليتم والفقر نقص في حق الناس عادة ، فلما صار محمد ﷺ نبياً ورسولاً ، وأكرم الخلق ، مع هذين الوصفين ، كان ذلك قلباً للعادة ، فكان من جنس المعجزات [٣].

✿ ✿ ✿ ✿ ✿ ✿ ✿

(١) أخرجه البخاري في صحيحه : كتاب البيوع ، باب (١٥) كسب الرجل وعمله بيده (٢/٧٣٠) ح (١٩٦٦) من حديث المِقْدَام بْنِ مَعْدِ يكَرِبَ رضي الله عنه .

(٢) ينظر : السيرة النبوية ، للدكتور / مروان شاهين ، ومصطفى عمارة (صـ ١١) دار الطباعة المحمدية ، ط / الأولى ١٩٨١م .

(٣) ينظر : التفسير الكبير للرازي (٣١/١٩٨) والتفسير المنير ، للدكتور / وهبة الزحيلي (٣٠/٢٨٩) .

الحكمة من امتنان الله ﷻ على نبيه ﷺ

وهنا سؤال ، وهو : كيف يحسن من الله ﷻ وهو الجواد الكريم ، أن يمن بنعمه على رسوله ﷺ ، فيقول : ﴿ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ . وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ . وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَىٰ ﴾ ؟

والجواب : « أن المنّ إنما يقبح من المنعم إذا أراد به الغض من المنعم عليه ، والأذى له .

فأما من أراد التذكير لشكر نعمته، والترغيب فيه ، فيستحق الشاكر المزيد ، فإنه في غاية الحسن . ولأن من كمال الجود ، وتمام الكرم ، تعريف المنعم عليه أنه إنما أنعم عليه ليسأل جميع ما يحتاج إليه ، فيعطى » [١].

وقال العلامة الرازي في الجواب عن هذا السؤال [٢]: إن المنّ إنما يحسن إذا قصد بذلك أن يقوي قلبه ، ويعده بدوام النعمة ، وامتنان الله ﷻ هنا إنما هو امتنان بزيادة نعمه ، كأنه يقول : مالك تقطع عني رجاءك ؟ ألستُ شرعتُ في تربيتك ، أتظنني تاركاً لما صنعتُ ، بل لابد وأن أتمم عليك وعلى أمتك النعمة ، كما قال ﷻ : ﴿ وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ { البقرة : ١٥٠ } .

وعن ابن عباس ــ رضي الله عنهما ــ : أن النبي ﷺ ، قال: « سألتُ الله مسألة ، وددتُ أني لم أكن سألته ، ذكرتُ رسل ربي ، فقلتُ : يا رب ، سخرت لسليمان الريح ، وكلمت موسى ، فقال تبارك وتعالى : ألم أجدكَ يتيماً فآويتك ، وضالاً فهديتك ، وعائلاً فأغنيتك ؟ قال : فقلت : نعم ، فوددت أن لم أسأله » [٣].

---

(١) مجمع البيان للطبرسي (٣٠٤/١٠) .

(٢) ينظر : التفسير الكبير للرازي (١٩٥/٣١) .

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره (٣٤٤٣/١٠) ح (١٩٣٧٨) والحاكم في المستدرك (٥٧٣/٢) ح(٣٩٤٤) وقال : هذا حديث صحيح الإسناد ، ولم يخرجاه . ووافقه الذهبي . وأورده السيوطي في الدر المنثور (٥٤٤/٨) وزاد نسبته : للطبراني وأبي نعيم والبيهقي ، كلاهما في الدلائل ، وابن مردويه ، وابن عساكر .

قال العلامة النيسابوري معقباً على هذا الحديث : « إن صح إسناد هذا الحديث ، وجب حمله على الشكاية مع الله ، أو إلى الله ، لا من الله ، فإن الأول قد يتفق للعارفين في مقام الانبساط والقبض ، دون الثاني » . غرائب القرآن (٥١٨/٦) .

**** وهنا سؤال ، وهو لماذا حذف الله ﷻ المفعول للأفعال الثلاثة : «فآوى، فهدى ، فأغنى » ، مثلما حذف في فعل « قلى » ؟**

**** ذكر المفسرون في ذلك أربعة أقوال :**

القول الأول : أن الحذف لظهور المراد ، لأنه تعالى كان يخاطب الرسول ﷺ فيما سبق ، والمعنى واضح . وفي حذفها إيجاز .

**** القول الثاني :** أن الحذف لمراعاة فواصل الآيات ، حتى لا يقال : « ألم يجدك يتيماً فآواك ، ووجدك ضالاً فهداك ، ووجدك عائلاً فأغناك » ، فتختلف بذلك عن فواصل باقي الآيات .

**** ولكن كما سبق أن قلت :** إن القرآن الكريم لا يراعي الفاصلة على حساب المعنى مطلقاً ، وهي قاعدة عامة في القرآن : المعنى أولاً ، ثم الفاصلة القرآنية .

**** القول الثالث :** أن الحذف هنا للإطلاق والدلالة على سعة الكرم .

« فآوى » بمعنى : « فآواك ، وآوى لك ، وآوى بك » . و« هدى » بمعنى : « هداك ، وهدى لك ، وهدى بك » . و« أغنى » بمعنى : « أغناك ، وأغنى لك ، وأغنى بك » [١].

**** فلو قال ﷻ : « ووجدك يتيماً فآوك » ، لكان الإيواء محصوراً في**

---

(١) ينظر : البحر المحيط (٤٨١/٨) وروح المعاني (١٦٣/٣٠) والتحرير والتنوير (٤٠٠/٣٠).

الرسول ﷺ فقط ، لكن عندما أطلق ، دل ذلك على أنه آوى الرسول ﷺ ، وآوى به خلقاً كثيراً بتعاليمه الكثيرين ، وتعاليمه كانت تحض على رعاية اليتامى ، وحسن معاملتهم ، واللطف بهم ، وآوى لأجله الكثير من الناس ، لأن من الناس من يؤوى اليتامى حباً برسول الله ﷺ وطمعاً في صحبته ﷺ في الجنة . كما ورد في الحديث الصحيح، أن النبي ﷺ قال: « أَنَا وكَافِلُ الْيَتِيمِ[1] فِي الْجَنَّةِ هَكَذَا، وأَشَارَ بِالسَّبَّابَةِ[2] وَالْوُسْطَى، وفَرَّجَ بَيْنَهُمَا»[3].

** **وكذلك الأمر بالنسبة للهداية**، إذ لو قال: «ووجدك ضالاً فهداك»، لكانت الهداية محصورة في النبي ﷺ .

ولكن الواقع غير ذلك ، فالله تعالى هدى رسوله الكريم ، وهدى به خلقاً كثيراً ، قال تعالى :

﴿ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ . صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ ﴾ { الشورى : ٥٢ ، ٥٣ } ، وهدى له ، ولأجله من أراد ﷺ .

---

(١) **قال ابن حجر** : قوله ﷺ : « أنا وكافل اليتيم » ، أي : القيم بأمره ومصالحه .
زاد مالك من مرسل صفوان بن سليم : « كافل اليتيم له ، أو لغيره » . ووصله البخاري في الأدب المفرد ، والطبراني من رواية أم سعيد بنت مرة الفهرية عن أبيها . ينظر : فتح الباري (٤٣٧/١٠) .

(٢) **قوله** : « **وأشار بأصبعيه السبابة** » وفي رواية : « السباحة » بمهملة بدل الموحدة الثانية ، والسباحة هي الإصبع التي تلي الإبهام ، سميت بذلك لأنها يسبح بها في الصلاة ، فيشار بها في التشهد لذلك ، وهي السبابة أيضاً ، لأنها يسب بها الشيطان حينئذ . ينظر : فتح الباري (٤٣٦/١٠) .

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه : كتاب الطلاق ، باب (٢٣) اللعان (٢٠٣٢/٥) ح (٤٩٩٨) وكتاب الأدب ، باب (٢٤) فضل مَنْ يَعُولُ يتيماً (٢٢٣٧/٥) ح (٥٦٥٩) من حديث سَهْلِ ابْنَ سَعْدٍ ﷺ .

كما أن الله ﷻ هدى الأنبياء من قبل سيدنا محمد ﷺ ، قال تعالى بعد ما ذكر جمع من الأنبياء والمرسلين : ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ ۗ قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ۖ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْعَٰلَمِينَ ﴾ { الأنعام : ٩٠ } .

كما هدى بهم من آمن من أقوامهم ، قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ ٱلضَّلَٰلَةُ ﴾ { النحل : ٣٦ } .

** **وكذلك الأمر بالنسبة للغنى** ، إذ لو قال ﷻ : « ووجدك عائلاً فأغناك » ، لكان الغنى محصوراً بالرسول ﷺ فقط ، لكن عندما أطلق ، دل ذلك على أنه ﷻ أغنى رسوله ﷺ ، وأغنى به وبتعاليمه ، فيما يخص الإنفاق وغيره ، خلقاً كثيراً ، وأغنى له خلقاً كثيراً .

قال الآلوسي بعد ما أورد هذا القول : « وظاهر الفاء مع تلك الأفعال ، تأبى ذلك »[1].

** **القول الرابع** : هو ما استظهره صاحب أضواء البيان قائلاً : « إنه لما كان فيه[2] امتنان ، وأنها نعم مادية ، لم يبرز الضمير ، لئلا يثقل عليه ﷺ المنة ، بينما أبرزه في قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ . وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ . ٱلَّذِىٓ أَنقَضَ ظَهْرَكَ . وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ﴾ { الشرح : ١ – ٤ } ، لأنها نعم معنوية انفرد بها ﷻ ، والله تعالى أعلم »[3].

** **وأرى أن الراجح في هذه المسألة** : أن الحذف هنا جاء ، لظهور المراد من ضمائر الخطاب قبله ، فهي لرسول الله ﷺ ، مع مراعاة فواصل الآيات،

---

(١) روح المعاني (١٦٣/٣٠) .
(٢) أي : لو أسند ضمير الخطاب للرسول ﷺ .
(٣) أضواء البيان للشنقيطي (٥٦٣/٨) .

وسعة الإطلاق والدلالة على سعة الكرم ، وأنها لما كانت نِعَماً مادية ، لم يبرز الضمير ، لئلا يثقل عليه المنة .

كل هذه الأمور مجتمعة ، لا يتعارض أحدها مع الآخر .

وسعة الإطلاق هنا يتناسب مع قوله تعالى قبل : ﴿ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ ﴾ .

✿✿✿✿✿✿✿

** **قوله تعالى** : ﴿ فَأَمَّا ٱلْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ . وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنْهَرْ . وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴾ :

لما عدد ﷻ عليه ﷺ هذه النعم الثلاث ، وصاه بثلاث وصايا ، كأنها مقابلة لها ، فقال تعالى : ﴿ فَأَمَّا ٱلْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ﴾ إلخ .

قال الإمام الرازي : إنه تعالى مَنّ عليه ﷺ بثلاثة أشياء ، ثم أمره بأن يذكر نعمة ربه ، فما وجه المناسبة بين هذه الأشياء ؟

الجواب : وجه المناسبة ، أن نقول : قضاء الدين واجب ، ثم الدين نوعان: مالي ، وإنعامي .

والثاني أقوى وجوباً، لأن المالي قد يسقط بالإبراء، والثاني يتأكد بالإبراء.

والمالي يقضي مرة فينجو الإنسان منه ، والثاني يجب عليك قضاؤه طول عمرك ، ثم إذا تعذر قضاء النعمة القليلة من منعم هو مملوك ، فكيف حال النعمة العظيمة من المنعم العظيم ؟

فكأن العبد يقول : إلهي أخرجتني من العدم إلى الوجود بشراً سوياً ، فكيف يمكنني قضاء نعمتك التي لا حد لها ولا حصر ؟

فيقول تعالى : الطريق إلى ذلك ، أن تفعل في حق عبيدي ما فعلته في حقك ، كنت يتيماً فآويتك ، فافعل في حق الأيتام ذلك ، وكنت ضالاً فهديتك ، فافعل

في حق عبيدي ذلك ، وكنت عائلاً فأغنيتك ، فافعل في حق عبيدي ذلك .

ثم إن فعلتَ كل ذلك ، فاعلم أنك إنما فعلتها بتوفيقي لك ، ولطفي وإرشادي ، فكن أبداً ذاكراً لهذه النعم والألطاف [١].

والفاء في قوله تعالى : ﴿ فَأَمَّا ﴾ فصيحة ، و« أمَّا » تفيد شرطاً مقدراً ، تقديره : « مهما يكن من شيء » ، فكان مفادها مشعراً بشرط آخر مقدر ، هو الذي اجتلبت لأجله فاء الفصيحة ، وتقدير نظم الكلام : « إذا كنت تعلم ذلك ، وأقررت به ، فعليك بشكر ربك » ، وبيّن له الشكر ، بقوله : ﴿ فَأَمَّا ٱلْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ﴾ الخ .

وقد جُعل الشكر هنا ، مناسباً للنعمة المشكور عليها ، وإنما اعتبر تقدير : « إذا أردتَ الشكر » ، لأن شكر النعمة تنساق إليه النفوس بدافع المروءة في عرف الناس .

وصُدر الكلام بـ « أمَّا » التفصيلية ، لأنه تفصيل لمجمل الشكر على النعمة .

ولما كانت « أمَّا » بمعنى : « مهما يكن من شيء » ، قرن جوابها بالفاء .

و﴿ ٱلْيَتِيمَ ﴾ مفعول منصوب بالفعل الذي بعده ﴿ تَقْهَرْ ﴾ ، وحق المنصوب أن يكون بعد الفاء ، والتقدير : مهما يكن من شيء ، فلا تقهر اليتيم ، ولا تنهر السائل . وإنما قدم المفعول على الفعل ، للاهتمام بشأنه .

وكذلك القول في تقديم ﴿ ٱلسَّآئِلَ ﴾، وتقديم ﴿ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ ﴾ على فعليهما[٢].

---

(١) ينظر : التفسير الكبير للرازي (١٩٥/٣١) .

(٢) ينظر : التبيان في إعراب القرآن (٢٨٩/٢) والجامع لأحكام القرآن (١٠٢/٢٠) والدر المصون للسمين الحلبي (٤٠/١١) وحاشية الجمل على الجلالين (٣٤٩/٨) والتحرير والتنوير (٤٠١/٣٠) .

** وقد ورد في معنى : « القهر » المنهي عنه في هذه الآية ، مجموعة من الأقوال [١]، منها :

(١) قال مجاهد : فلا تحتقره ، فقد كنت يتيماً .

(٢) قال قتادة : كن لليتيم كالأب الرحيم .

(٣) قال سفيان بن عيينة : فلا تظلمه . وروي عن مجاهد أيضاً .

(٤) قال ابن سلام : فلا تستذله .

(٥) قال الفراء والزجاج : لا تغلبه على ماله ، فتذهب بحقه لضعف حاله .

(٦) قال الأخفش : لا تسلط عليه بالظلم ، ادفع إليه حقه ، واذكر يتمك .

** والراجح ، أن يراد بالقهر هنا عمومه ، لأن لفظ الآية عام ، فهو يشمل كل هذه الأقوال المذكورة ، كما يشمل غيرها ؛ **وذلك لقواعد الترجيح الآتية :**

الأولى : ﴿ يجب حمل نصوص الوحي على العموم ، ما لم يرد نص بالتخصيص ﴾ .

فمتى أمكن حمل الآية على معنى كلّي عام شامل ، يجمع تفسيرات جزئية جاءت في تفسيرها ــ من قبيل التفسير بالمثال ، أو بالجزء ، أو بالثمرة ، أو بنحو ذلك ــ ولا معارض له ، وتشهد الأدلة لصحته ، فهو أولى بتفسير الآية ، حملاً لها على عموم ألفاظها ، ولا داعي لتخصيصها بواحد من المعاني الجزئية التي جاءت في التفاسير ، إلا أن يكون السياق يقتضي تخصيصها حتماً ، أو يقوم الدليل على ذلك [٢].

---

(١) ينظر : معاني القرآن للفراء (٢٧٤/٣) وتفسير الماوردي (٤٧٣/٤) والكشاف (٧٧٣/٤) وزاد المسير (١٦٠/٩) والجامع لأحكام القرآن للقرطبي (١٠٠/٢٠) وتفسير ابن كثير (٥٢٤/٤) والدر المنثور (٥٤٥/٨) وفتح القدير (٤٨٥/٥) .

(٢) **ينظر حول هذه القاعدة واستعمالها في الترجيح :** جامع البيان (٥٠٨/١) ، (٧٠/٩) وأحكام القرآن

الثانية : ﴿ إذا احتمل اللفظ معاني متعددة ولم يمتنع إرادة الجميع حمل عليها ﴾ .

الثالثة : ﴿ إعمال جميع الأدلة ــ بشرط صحتها ــ أولى من إعمال أحدها وإهمال الآخر ﴾ .

وعلى هذا ، فلا يجوز قهر اليتيم بأي وجه من وجوه القهر ، كائناً ما كان ، سواء أكان ذلك بالقول ، أو بالفعل ، أو بأخذ ماله ، أو بالتسلط عليه ، أو بظلمه ، فكل ذلك لا يحل .

ويؤيد ذلك ، قول الراغب ــ وقد سبق ذكره في معاني المفردات ــ : «القهر هو : الغلبة والتذليل معاً ، ويستعمل في كل واحد منهما ..... قال تعالى : ﴿ فَأَمَّا ٱلْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ﴾ ، أي : لا تُذْلِلْ » [١].

وقال الحافظ ابن كثير في معنى القهر « أي : لا تذله وتنهره وتهنه ، ولكن أحسن إليه ، وتلطف به » [٢].

وقال العلامة ابن عاشور : « والقهر : الغلبة والإذلال ، وهو المناسب هنا ، وتكون هذه المعاني بالفِعل ، كالدَّعّ [٣] والتحقير بالفعل ، وتكون بالقول ، قال

لابن العربي (٥٠/١) والجامع لأحكام القرآن (١٧٩/١) ومجموع الفتاوى لابن تيمية (٢٨٥/٢٣) والبرهان للزركشي (٢١٨/٢ - ٢٢٠) والإتقان للسيوطي (٨٨/٢) وقواعد التفسير للسبت (٥٤٦/١) وقواعد الترجيح للحربي (٥٢٧/٢) .

(١) المفردات في غريب القرآن (صـ ٤١٥) مادة « قهر » .

(٢) تفسير ابن كثير (٥٢٤/٤) .

(٣) **الدَّعُ هو** : الدفع بعنف وشدة . يقال : دَعَّ فلانٌ فلاناً دَعًّا ، إذا دفعه في جفوة وغلظة وعنف. ينظر : لسان العرب (٨٥/٨) مادة « دع » . **قال الراغب** : « الدَّعُّ : الدفع الشديد ، وأصله أن يقال للعاثر دَعْ دَعْ ، كما يقال له لَعا » . المفردات في غريب القرآن للراغب (ص١٧٦) مادة «دع» .

تعالى : ﴿ وَقُولُواْ لَهُمْ قَوْلاً مَّعْرُوفًا ﴾ { النساء : ٥ } ، وتكون بالإشارة مثل عُبوس الوجه .

فالقهر المنهي عنه هو : القهر الذي لا يعامل به غير اليتيم في مثل ذلك .

فأما القهر لأجل الاستصلاح ، كضرب التأديب ، فهو من حقوق التربية ، قال تعالى :

﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْيَتَـٰمَىٰ ۖ قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ ۖ وَإِن تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ ﴾ { البقرة : ٢٢٠ } » [١].

** **إذاً فمن مظاهر إكرام اليتيم** : أن يحرص الولي على تأديبه ورعايته ومراقبته ومحاسبته ، كما يفعل مع ولده ، فعن جابر بن عبد الله ـــ رضي الله عنهما ـــ قال : قلت : يا رسول الله ، مِمَّا أَضْرِب مِنْهُ يَتِيمِي ؟ قَالَ : مِمَّا كُنْت ضَارِباً مِنْهُ ولدك ... » [٢].

وسُئلت السيدة عائشة ـــ رضي الله عنها ـــ عن أدب اليتيم ، فقالت : « إني لأضرب أحدهم حتى ينبسط [٣] » [٤].

وهذا نبي الله زكريا عليه السلام يتابع السيدة مريم ، ويراقبها ، ويسألها عن الرزق الذي وجده عندها، قائلاً: ﴿ يَـٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَـٰذَا ۖ قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ { آل عمران : ٣٧ } .

فلا بد من تعليم اليتيم وتثقيفه ، ومعاملته المعاملة العادية التي نعامل بها

---

(١) التحرير والتنوير (٤٠٢/٣٠) .

(٢) أخرجه ابن حبان في صحيحه (٥٤/١٠) والطبراني في المعجم الصغير (١٥٧/١) وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (١٦٣/٨) رواه الطبراني في الصغير ، وفيه معلى بن مهدي ، وثقه ابن حبان وغيره، وفيه ضعف ، وبقية رجاله ثقات .

(٣) قولها : « حتى ينبسط » ، أي : حتى يستلقي على الأرض لا يقدر على القيام .

(٤) أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه (٢٦٣/٦) والبيهقي في السنن الكبرى (٢٨٥/٦) .

أولادنا ، حتى لا نجرحه ، ولنحذر أن نعامله معاملة خاصة تختلف عن الآخرين .

وعليه ، فليس من باب الإساءة إلى اليتيم ، تأديبه والحزم معه ، بل ذلك من مصلحته ، ولله در من قال [١] :

فقسا لتزدجروا ومنْ يكُ حازماً ... فَليَقْسُ أحياناً على مَن يَرْحَم

هذا ، « ولو علم الناس ما في إهمال تربية الأيتام من الفساد في الأمة ، لقدروا عناية الله بأمرهم في كتابه قدرها ، ولبذلوا من سعيهم ومن مالهم ، في إصلاح حال الأيتام كل ما استطاعوا . ولو أحس كل واحد بأن الموت قريب منه ، وأنه هدف لنيله ، لا يدري متى يأخذه عن ولده ـــ فيتركه : إما غنياً يأكل ماله الأوصياء ، أو فقيراً يستذله الأدنياء ـــ لتسابقوا إلى تقويم أمر اليتيم تسابقهم إلى اللذة والنعيم » [٢].

** **قرأ الجمهور** : « تَقْهَرْ » بالقاف ، وقرئ « فلا تكهر » بالكاف ، بدل القاف [٣]، أي : فلا تعبس في وجهه [٤].

وعليه ، فهي لغة بمعنى قراءة الجمهور ، والعرب تعاقب بين الكاف والقاف .

---

(١) القائل هو أبو تمام . ينظر : ديوان أبي تمام ، شرح الخطيب التبريزي ، تحقيق / محمد عبده عزام (صـ ٢٠٧) دار المعارف بمصر ، بدون .

(٢) تفسير جزء عم للشيخ محمد عبده (صـ ٨٦) .

(٣) هي قراءة شاذة ، قرأ بها : علي بن أبي طالب ، وعبد الله بن مسعود ، وإبراهيم التيمي . ينظر : قراءة عبد الله بن مسعود ، للدكتور محمد خاطر (صـ ١٤٧) ومعاني القرآن للفراء (٢٧٤/٣) ومختصر القرآن لابن خالويه (صـ ١٧٥) وتفسير البحر المحيط (٤٨٢/٨) .

(٤) ينظر : الكشاف للزمخشري (٧٧٣/٤) وغرائب القرآن للنيسابوري (٥١٨/٦) .
قال الزمخشري : « الكَهْر ، والنَّهْر ، والقَهْر : أخوات . وفي قراءة عبد الله : { فأمَّا اليتم فلاَ تَكْهر } . يُقَال : كَهَرت الرَّجُل ، إذا زَبَرتُه واستقبلته بَوجْهٍ عابس ، وفلان ذو كُهُرورة » . الفائق في غريب الحديث (٢٨٧/٣) .

وقيل : القهر الغلبة . والكهر: الزجر [١]. وقيل : هي « القهر » ، إلاَّ أنه أشد [٢].

« **وخص اليتيم** ، لأنه لا ناصر له غير الله تعالى ، فغلظ في أمره ، بتغليظ العقوبة على

ظالمه » [٣]. فمَن قهر يتيماً وظلمه ، فخصمه الله ﷻ .

** **وهذا النهي وإن كان للنبي ﷺ ، إلا أنه عام لأمته** ، فإذا كان الله ﷻ ينهى نبيه ﷺ عن ذلك ، وهو الذي وصفه ربه ﷻ بقوله : ﴿ لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ { التوبة : ١٢٨ } . فمن باب أولى أن يُنهى عن ذلك من لم يكن مثله ﷺ ، بل ولا يدانيه ، وهم أمته ﷺ .

وإذا كان الله ﷻ قد امتن على نبيه ﷺ باليتم ، فقال : ﴿ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ ﴾ ، فإن هذا الامتنان يحمل في طياته : التكريم له ﷺ ، لأن الله ﷻ قد آواه، والتكريم لليتامي في شخصه ﷺ ، ولذا وصاه ربه ﷻ باليتامى فقال له ﷺ : ﴿ فَأَمَّا ٱلْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ﴾ .

« وهنا يتجلى سر لطيف في مثالية التشريع الإسلامي ، حيث يخاطب الله تعالى أفضل الخلق ، وأرحمهم وأرأفهم بعباد الله ، الموصوف بقوله تعالى : ﴿ لَقَدْ

---

(١) ينظر : الجامع لأحكام القرآن (٢٠/١٠٠) وتفسير البحر المحيط (٨/٤٨٢) . **قال ابن الأثير:** . الكَهْر: الانتهار ، وقد كَهَره يكْهَرُه : إذا زبَره ، واستقبله بوجهٍ عَبُوس . . النهاية في غريب الحديث (٤/٢١٢) .

وقال ابن منظور: . الكَهْرُ : القَهْرُ ، والكَهْرُ : عُبُوسُ الوجه . والكَهْرُ : الشَّتْمُ . . لسان العرب (٥/١٥٤) مادة . كهر . .

(٢) ينظر : أضواء البيان (٨/٥٦٤) .

(٣) أحكام القرآن للجصاص (٥/٣٧٢) والجامع لأحكام القرآن (٢٠/١٠٠) .

جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ . وبقوله : ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ { القلم : ٤ } ، ليكون مثالاً مثالياً في أمة قست قلوبها ، وغلظت طباعها ، فلا يرحمون ضعيفاً ، ولا يؤدون حقاً ، إلا من قوة » [١].

✿ ✿ ✿ ✿ ✿ ✿ ✿

** قوله تعالى : ﴿ وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنْهَرْ ﴾ :

تقدم معنى النهر ، عند الحديث عن معاني المفردات ، وخلاصة معناه : أنه الزجر بالقول ، مثل أن يقول : إليك عني . يقال : نهره وانتهره : إذا استقبله بكلام يزجره .

** وقد اختلف المفسرون في المراد بالسائل هنا على قولين :

أحدهما : أن المراد به : سائل البرّ ، أي : من يطلب مالاً أو عطاءً . قاله الجمهور .

ومعنى الآية : ﴿ فَلَا تَنْهَرْ ﴾ ، أي : إذا جاءك السائل ، فرد رداً جميلاً ، إما بعطاء ، وإما بقول حسن فيه رحمة ولين .

ويدل على هذا قول الله تعالى : ﴿ قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَآ أَذًى ﴾ { البقرة : ٢٦٣ } .

كما يدل عليه أيضاً قوله ﷻ : ﴿ وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا . إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓا إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ ۖ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورًا . وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ٱبْتِغَآءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُل لَّهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا ﴾ { الإسراء : ٢٦ – ٢٨ } . فبعد ما أمر الله ﷻ الإنسان بإعطاء ذوي

---

(١) أضواء البيان (٨/٥٦٨) .

قرباه ، والمسكين ، وابن السبيل ، حقوقهم الثابتة لهم من البر وصلة الرحم ، والمعاونة والإحسان ، والوقوف إلى جانبهم في السراء والضراء ، ونحو ذلك ، مما توجبه تعاليم الدين الحنيف . ونهى عن التبذير ، لأن المبذرين يماثلون ويشابهون الشياطين في صفاتهم القبيحة ، وكان الشيطان في كل وقت وفي كل حال ، جحوداً لنعم ربه ، قال ﷻ : ﴿ وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ٱبْتِغَآءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُل لَّهُمْ قَوْلاً مَّيْسُورًا ﴾ .

والمعنى : وإما تعرضن ــ أيها المخاطب ــ عن ذي قرابتك ، وعن المسكين وابن السبيل ، بسبب إعسارك وانتظارك لرزق يأتيك من الله ﷻ ، فقل لهم في هذه الحالة قولاً ليناً رفيقاً لطيفاً ، يدل على اهتمامك بشأنهم ، ويدخل السرور على نفوسهم ، كأن تقول لهم مثلاً : ليس عندي اليوم ما أقدمه لكم ، وإن يرزقني الله بشيء فسأجعل لكم نصيباً منه .

** **وهذا هو الذي يدل عليه قوله ﷻ في الآية التي معنا : ﴿ وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنْهَرْ ﴾** ، يعني : لا تزجره ، ولا تطرده ، ولا تقل له قولاً سيئاً .

وقال رسول الله ﷺ : « رُدُّوا السَّائِلَ ، وَلَوْ بِظِلْفِ [1] شَاةٍ مُحْتَرِقٍ ، أَوْ

(١) **الظِّلْف** : الظُّفْرُ المشقوق للبَقَر والغَنَم والظبي ، كالحافِر للفَرس والبَغْل ، والخُفُّ للبَعير . ينظر : النهاية لابن الأثير (١٥٩/٣) والمعجم الوجيز (صـ ٤٠٠) مادة ـ ظلف ـ . و ـ لو ـ للتقليل ، والمراد الرد بالإعطاء ، والمعنى : تصدقوا بما تيسر كثر أو قل ، ولو بلغ في القلة الظلف مثلاً ، فإنه خير من العدم . وعلى هذا فهو مثل ضُرب للمبالغة . ينظر : شرح الزرقاني على موطأ الإمام مالك ، للعلامة / محمد بن عبد الباقي بن يوسف الزرقاني ــ ت ١١٢٢هـ (٣٦٦/٤) دار الكتب العلمية ــ بيروت ، ط / الأولى ١٤١١هـ .

قال ابن الأثير : ـ أي : أعطُوه ولو ظِلْفاً مُحْرقاً ، ولم يُرِدْ رَدَّ الحرْمان والمَنْع ، كقولك : سلَّم فردَّ عليه ، أي : أجَابه . وفي حديث آخر : ـ لا تَرُدّوا السَّائل ، ولو بظِلْفٍ مُحْرَقٍ ـ . أي : لا تَرُدُّوه رَدَّ حِرْمان بلا شيء ، ولوْ أنه ظِلْف ـ . النهاية لابن الأثير (٢١٤/٢) مادة ـ ردد ـ .

مُحْرَقٍ » [1].

** **وثانيهما : أن المراد به : السائل عن العلم والدين** ، لا سائل المال ، فلا تنهره بالغلظة والجفوة ، وأجبه برفق ولين [2]. وبه قال: أبو الدرداء، والحسن، وسفيان الثوري ، وغيرهم .

ونظيره من وجه قوله تعالى : ﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ . أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ . وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ . أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكْرَىٰٓ ﴾ { عبس : ١ – ٤ } [3].

قال ابن العربي [4] : قال تعالى : ﴿ قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَآ أَذًى﴾ { البقرة : ٢٦٣ } . فكيف بالأذى دون الصدقة ؟

وأما السائل عن الدين فجوابه فَرْضٌ على العَالِم ، على الكفاية ، كإعطاء سائل البِرِّ سواء

وقد كان أبو الدَّرْدَاءِ ﷺ يَنْظُرُ إِلَى أَصْحَابِ الْحَدِيثِ ، وَيَبْسُطُ رِدَاءَهُ لَهُمْ ، وَيَقُولُ : « مَرْحَباً بِأَحِبَّةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ » .

(١) أخرجه أحمد في المسند (٣٨١/٥) عَنِ ابْنِ بِجَادٍ عَنْ جَدَّتِهِ عن رسول الله ﷺ . قال الشيخ شعيب الأرنؤوط : إسناده حسن .

(٢) وقد كان ﷺ رحيماً شفيقاً على الجاهل ، حتى يتعلم ، كما في **قصة الأعرابي الذي بال في المسجد** ، حين صاح به الصحابة ، فقال لهم ﷺ : ـ دَعُوهُ ، وَأَهْرِيقُوا عَلَى بَوْلِهِ ذَنُوباً مِنْ مَاء ، أَوْ سَجْلاً مِنْ مَاء ، فَإِنَّمَا بُعِثْتُمْ مُيَسِّرِينَ وَلَمْ تُبْعَثُوا مُعَسِّرِينَ ـ . إلى أن قال الأعرابي : .اللَّهُمَّ ارْحَمْنِي وَمُحَمَّداً ، وَلَا تُشْرِكْ فِي رَحْمَتِكَ إِيَّانَا أَحَداً . فَقَالَ ﷺ : ـ لَقَدْ حَظَرْتَ وَاسِعاً ـ . الحديث في الصحيحين ، رواه أبو هريرة ﷺ ، ولكن دون الجملة الأخيرة ، فهي في سنن ابن ماجة (١٧٦/١) ح (٥٣٠) وقال الألباني : صحيح بما قبله .

(٣) ينظر : النكت والعيون للماوردي (٤٧٤/٤) والكشاف (٧٧٣/٤) والمحرر الوجيز (٤٩٥/٥) وزاد المسير (١٦٠/٩) والتفسير الكبير للرازي (١٩٩/٣١) والجامع لأحكام القرآن للقرطبي (١٠١/٢٠) وتفسير ابن كثير (٥٢٤/٤) والدر المنثور (٥٤٥/٨) وفتح القدير (٤٨٥/٥) .

(٤) ينظر : أحكام القرآن لابن العربي (٤٠٩/٤ – ٤١٠) .

وَفِي حَدِيثِ أَبِي هَارُونَ الْعَبْدِيِّ ﷺ ، قَالَ : كُنَّا إِذَا أَتَيْنَا أَبَا سَعِيدٍ الْخُدْرِيَّ ﷺ يَقُولُ : مَرْحَباً بِوَصِيَّةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، إِنَّ رسول الله ﷺ قَالَ : « إِنَّ النَّاسَ لَكُمْ تَبَعٌ (١)، وَإِنَّ رِجَالاً يَأْتُونَكُمْ مِنْ أَقْطَارِ الأَرَضِينَ يَتَفَقَّهُونَ فِي الدِّينِ ، فَإِذَا أَتَوْكُمْ فَاسْتَوْصُوا بِهِمْ خَيْراً » (٢).

وَفِي رِوَايَةٍ : « يَأْتِيكُمْ رِجَالٌ مِنْ قِبَلِ الْمَشْرِقِ ... » فَذَكَرَهُ (٣).

** وأرى أن الراجح ، في المراد بالسائل هنا : العموم ، فلا يختص بسائل العطاء ، بل يشمل كل سائل ، سواء أكان السؤال عن مال ، أو عن علم ، أو عن غير ذلك من شئون الحياة . وأعظم تصرفات الرسول ﷺ كانت بإرشاد المسترشدين .

« والتعريف في ﴿ ٱلسَّآئِلَ ﴾ تعريف الجنس ، فيعم كل سائل ، أي : عمّا يُسأل النبي ﷺ عن مثله » (٤).

وعليه ، فلا مانع من أن يكون النهي الوارد في الآية شاملاً لهذين الصنفين ، فلا يُنهر من جاء سائلاً عن العلم ، شريطة ألا يكون هذا السؤال

(١) قوله : « إن الناس لكم تبع » : جمع تابع ، كخدم جمع خادم ، والخطاب لعلماء الصحابة . يعني إن الناس يتبعونكم في أفعالكم وأقوالكم ، لأنكم أخذتم عني مكارم الأخلاق . تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي ، للعلامة / أبي العلا محمد عبد الرحمن بن عبد الرحيم المباركفوري ـــ ت ١٣٥٣هـ ـــ (٣٤٢/٧) دار الكتب العلمية ـ بيروت ـ بدون .

(٢) أخرجه الترمذي في سننه : كتاب العلم ، باب (٤) ما جاء في الاستيصاء بمن يطلب العلم (٣٠/٥) ح (٢٦٥٠) وقال الترمذي : قَالَ عَلِيُّ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ ، قَالَ يَحْيَى بْنُ سَعِيدٍ : كَانَ شُعْبَةُ يُضَعِّفُ أَبَا هَارُونَ الْعَبْدِيَّ ، قَالَ يَحْيَى بْنُ سَعِيدٍ : مَا زَالَ ابْنُ عَوْنٍ يَرْوِي عَنْ أَبِي هَارُونَ الْعَبْدِيِّ حَتَّى مَاتَ ، وَأَبُو هَارُونَ اسْمُهُ عُمَارَةُ بْنُ جُوَيْنٍ . والحديث ضعفه الشيخ الألباني على سنن الترمذي (١٥٠/٦) .

(٣) أخرجه الترمذي في الموضع السابق ، ح (٢٦٥١) وقال : هذا حديث لا نعرفه إلا من حديث أبي هارون ، عن أبي سعيد ﷺ .

(٤) التحرير والتنوير (٤٠٢/٣٠) .

تعنت ، لأن الأسئلة في العلم مختلفة ، أما من جاء سائلاً يريد أن يتبصر دينه ، ويقف على أحكامه وحدوده وأخلاقه ، فهذا لا يُنهر ، بل يترفق به ، وكذلك إذا كان سائلاً يسأل مالاً ، فإن لم تعطه فلا تنهره .

** ويقوي هذا الترجيح القواعد التفسيرية الآتية :

الأولى : « يجب حمل نصوص الوحي على العموم ، ما لم يرد نص بالتخصيص » .

الثانية : « إذا احتمل اللفظ معاني متعددة ولم يمتنع إرادة الجميع حمل عليها » .

الثالثة : « إعمال جميع الأدلة ـ بشرط صحتها ـ أولى من إعمال أحدها وإهمال الآخر » .

« ويستفاد من النهي عن « القهر ، والنهر » النهي عما هو أشد منهما في الأذى ، كالشتم والضرب ، والاستيلاء على المال ، وتركه محتاجاً .

وليس من النهر ، نهي السائل عن مخالفة آداب السؤال في الإسلام » (١).

قال الأستاذ سيد قطب : « وهذه التوجيهات إلى إكرام اليتيم ، والنهي عن قهره ، وكسر خاطره وإذلاله ، وإلى إغناء السائل ، مع الرفق به والكرامة ، كانت ـ كما ذكرنا مراراً ـ من أهم إيحاءات الواقع في البيئة الجاحدة المتكالبة ، التي لا ترعى حق ضعيف ، غير قادر على حماية حقه بسيفه !! حيث رفع الإسلام هذه البيئة ، بشرعة الله ﷻ إلى الحق والعدل ، والتحرج والتقوى ، والوقوف عند حدود الله ، الذي يحرس حدوده ويغار عليها ، ويغضب للاعتداء على حقوق عباده

(١) المرجع السابق (٤٠٣/٣٠) .

الضعاف ، الذين لا يملكون قوة ولا سيفاً يذودون به عن هذه الحقوق » (١).

** **هذا ، والمسألة والإلحاف فيها مع الغنى عنها ، حرام لا يحل ، وقد اتفق العلماء على النهي عن السؤال من غير ضرورة** (٢).

قال تعالى : ﴿ لِلْفُقَرَآءِ ٱلَّذِينَ أُحْصِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِى ٱلْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ ٱلْجَاهِلُ أَغْنِيَآءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُم بِسِيمَىٰهُمْ لَا يَسْـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلْحَافًا ۗ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴾ { البقرة : ٢٧٣ } .

والإلحاف : الإلحاح ، وهو اللزوم ، وأن لا يفارق السائلُ المسئولَ إلا بشيء يعطاه . من قولهم : لحفني من فضل لِحَافه ، أي : أعطاني من فضل ما عنده (٣).

وقيل : سمى الإلحاح بذلك ، لأنه يغطى القلب ، كما يغطى اللحاف من تحته (٤).

وذكر الراغب أصل الإلحاف فقال : « وأصله من اللِّحَاف ، وهو ما يُتَغَطّى به » (٥).

** **واختلف المفسرون في معنى قوله تعالى : ﴿ لَا يَسْـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلْحَافًا ﴾ على قولين :**

الأول : ذهب جمهور المفسرين إلى أن المعنى : لا يسألون الناس أصلاً ،

---

(١) في ظلال القرآن (٣٩٢٧/٦) .
(٢) ينظر : شرح النووي على صحيح مسلم (١٢٧/٧) .
(٣) ينظر : الكشاف (٣٤٥/١) .
(٤) ينظر : روح المعاني (٤٧/٣) .
(٥) المفردات للراغب (صـ ٤٥٢) مادة ، لحف ، .

لا إلحاحاً ، ولا غير إلحاح ، تعففاً منهم ، فهم متعففون عن المسألة عفة تامة ، والتعفف صفة ثابتة لهم .

وعلى هذا فالنفي منصب على السؤال وعلى الإلحاف .

الثاني : ذهب بعض المفسرين إلى أن معنى الآية : أنهم إن سألوا ، سألوا بتلطف ، ولم يلحوا . فيكون المراد نفى الإلحاف ، أي : إنهم يسألون غير ملحفين . وهذا هو السابق للفهم .

وفى هذا : تنبيه على سوء حالة من يسأل الناس إلحافاً (١).

** **والذي عليه المحققون من العلماء** : أن النفي منصب على السؤال وعلى الإلحاف ، أي : أنهم لا يسألون أصلاً ، تعففاً منهم ؛ لأن الله ﷻ وصفهم بالتعفف عن السؤال قبل ذلك فقال :

﴿ يَحْسَبُهُمُ ٱلْجَاهِلُ أَغْنِيَآءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ ﴾ ، وذلك ينافي صدور السؤال عنهم ، إذ أنهم لو كانوا يسألون ، ما ظنهم الجاهل أغنياء من التعفف ، ولو كانوا يسألون ما كانوا متعففين ، ولو كانوا يسألون ما احتاج صاحب البصيرة النافذة إلى معرفة حالهم عن طريق التفرس في سماتهم ، لأن سؤالهم كان يغنيه عن ذلك (٢).

وإنما جاء النفي بهذه الطريقة التي يوهم ظاهرها ، أن النفي متجه إلى الإلحاف وحده ، للموازنة بينهم وبين غيرهم ، فإن غيرهم إذا كان يسأل الناس إلحافاً ، فهم لا يسألون مطلقاً ، لا بإلحاف ولا بدونه .

والنفي بهذه الطريقة فيه تعريض بالملحفين ، وثناء على المتعففين . ولذا قال بعضهم : وإذا علم أنهم لا يسألون البتة ، فقد علم أنهم لا يسألون الناس إلحافاً .

والمراد التنبيه على سوء طريقة من يسأل الناس إلحافاً ، ومثاله إذا

---

(١) ينظر: جامع البيان للطبري (٩٩/٣) والكشاف (٣٤٥/١) والجامع لأحكام القرآن للقرطبي (٣٤٢/٣).
(٢) ينظر : جامع البيان للطبري (٩٩/٣) والتفسير الكبير للرازي (٧١/٧) وروح المعاني (٤٧/٣) .

حضر عندك رجلان ، أحدهما : عاقل وقور قليل الكلام ، والآخر : طياش مهذار سفيه ، فإذا أردت أن تمدح أحدهما وتعرض بذم الآخر ، قلت : فلان رجل عاقل وقور ، لا يخوض في الترهات ، ولا يشرع في السفاهات . ولم يكن غرضك من قولك : لا يخوض في الترهات ، وصفه بذلك ، لأن ما تقدم من الأوصاف الحسنة يغني عن ذلك ، بل غرضك التنبيه على مذمة الثاني .

فالأمر هنا كذلك، لأن قوله: ﴿ لَا يَسْـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلْحَافًا ﴾ بعد قوله: ﴿ يَحْسَبُهُمُ ٱلْجَاهِلُ أَغْنِيَآءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ ﴾ ، الغرض منه التنبيه على من يسأل الناس إلحافاً، وبيان مباينة أحد الجنسين عن الآخر في استيجاب المدح والتعظيم(١).

** وقد وردت أحاديث متعددة تمدح المتعففين عن السؤال ، وتذم الملحفين فيه ، ومن ذلك :

عن أبي هريرة ﷺ ، قال : قال رسول الله ﷺ : « لَيْسَ الْمِسْكِينُ الَّذِي تَرُدُّهُ التَّمْرَةُ وَالتَّمْرَتَانِ ، وَلا اللُّقْمَةُ وَلا اللُّقْمَتَانِ ، إِنَّمَا الْمِسْكِينُ الْمُتَعَفِّفُ ، اقْرَءُوا إِنْ شِئْتُمْ: ﴿ لَا يَسْـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلْحَافًا ﴾ » (٢).

وعن ابن عمر ــ رضي الله عنهما ــ أن النبي ﷺ ، قال : « لا تَزَالُ الْمَسْأَلَةُ بِأَحَدِكُمْ ، حَتَّى يَلْقَى اللَّهَ وَلَيْسَ فِي وَجْهِهِ مُزْعَةُ(٣) .....

(١) ينظر : التفسير الكبير للرازي (٧٢/٧) .

(٢) أخرجه البخاري في كتاب التفسير ، باب (٥٠) ﴿ لَا يَسْـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلْحَافًا ﴾ (١٦٥١/٤) ح (٤٢٦٥) .

(٣) المزعة { بضم الميم وإسكان الزاى } : القطعة . قيل معناه : يأتي يوم القيامة ذليلاً ساقطاً ، لا قدر له ولا جاه ، ولا وجه له عند الله . وقيل معناه : أنه يعذب في وجهه حتى يسقط لحمه ، لمشاكلة العقوبة في مواضع الجناية من الأعضاء ، لكونه أذل وجهه بالسؤال . وقيل : هو على ظاهره ، فيحشر ووجهه عظم كله ، لا لحم عليه ، عقوبة له ، وعلامة له بذنبه حين طلب وسأل بوجهه . والأول صرف للحديث عن ظاهره . وقال ابن أبي جمرة : معناه أنه ليس في وجهه من الحسن شيء ، لأن

لَحْمٍ » (١).

قال الإمام النووي : « وهذا فيمن سأل لغير ضرورة ، سؤالاً منهياً عنه ، وأكثر منه ، كما في الرواية الأخرى : « مَنْ سَأَلَ النَّاسَ أَمْوَالَهُمْ تَكَثُّراً ، فَإِنَّمَا يَسْأَلُ جَمْراً ، فَلْيَسْتَقِلَّ أَوْ لِيَسْتَكْثِرْ (٢) » (٣).

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ ، قَالَ : سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ : « لأَنْ يَغْدُوَ أَحَدُكُمْ فَيَحْطِبَ عَلَى ظَهْرِهِ ، فَيَتَصَدَّقَ بِهِ ، وَيَسْتَغْنِيَ بِهِ مِنَ النَّاسِ ، خَيْرٌ لَهُ مِنْ أَنْ يَسْأَلَ رَجُلاً ، أَعْطَاهُ أَوْ مَنَعَهُ ، ذَلِكَ فَإِنَّ الْيَدَ الْعُلْيَا ، أَفْضَلُ مِنَ الْيَدِ السُّفْلَى ، وَابْدَأْ بِمَنْ تَعُولُ » (٤).

وعن أَبُي كَبْشَةَ الأَنْمَارِيُّ ﷺ ، أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ : « ثَلاثَةٌ أُقْسِمُ عَلَيْهِنَّ ، وَأُحَدِّثُكُمْ حَدِيثًا فَاحْفَظُوهُ ، قَالَ : مَا نَقَصَ مَالُ عَبْدٍ مِنْ صَدَقَةٍ ، وَلا ظُلِمَ عَبْدٌ مَظْلَمَةً فَصَبَرَ عَلَيْهَا ، إِلا زَادَهُ اللَّهُ عِزًّا ، وَلا فَتَحَ عَبْدٌ بَابَ مَسْأَلَةٍ ، إِلا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْهِ بَابَ فَقْرٍ ، أَوْ كَلِمَةً نَحْوَهَا » (٥).

حسن الوجه هو بما فيه من اللحم .

قال : والمراد به من سأل تكثراً وهو غني ، لا تحل له الصدقة ، وأما من سأل وهو مضطر ، فذلك مباح له ، فلا يعاقب عليه . ينظر : شرح النووي على صحيح مسلم (١٣٠/٧) وفتح الباري (٣٣٩/٣) .

(١) أخرجه مسلم في صحيحه : كتاب الزكاة ، باب (٣٥) كراهة المسألة للناس (٧٢٠/٢) ح (١٠٣٩) .

(٢) الحديث أخرجه مسلم في الموضع السابق ، ح (١٠٤١) من رواية أبي هريرة ﷺ . ومعناه : أنه يعاقب بالنار ، ويحتمل أن يكون على ظاهره ، وأن الذي يأخذه يصير جمراً يكوى بها ، كما ثبت في مانع الزكاة . ينظر : شرح النووي على صحيح مسلم (١٣١/٧) .

(٣) شرح النووي على صحيح مسلم (١٣٠/٧) .

(٤) أخرجه مسلم في الموضع السابق ، ح (١٠٤٢) .

(٥) أخرجه الترمذي في سننه : كتاب الزهد ، باب (١٧) ما جاء مثل الدنيا مثل أربعة نفر (٥٦٢/٤) ح (٢٣٢٥) وقال : حديث حسن صحيح .

وقال إبراهيم بن أدهم ﷺ : « سؤال الحاجات من الناس ، هي الحجاب بينك وبين الله تعالى ، فأنزل حاجتك بمن يملك الضر والنفع ، وليكن مفزعك إلى الله تعالى ، يكفيك الله ما سواه ، وتعيش مسروراً » [١].

ولعله يشير بذلك إلى قوله ﷺ لابن عباس ــ رضي الله عنهما ــ : « ...إِذَا سَأَلْتَ فَاسْأَلْ اللَّهَ ، وَإِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ ... » [٢].

** **والخلاصة** : أن السؤال إنما يجوز عند الضرورة ، وأنه لا يصح لمؤمن أن يسأل الناس وعنده ما يكفيه ، لأن السؤال ذل يربأ بنفسه عنه كل من يحافظ على مروءته وكرامته وشرفه .

قال العلامة القرطبي : الإلحاح في المسألة والإلحاف فيها مع الغنى عنها ، حرام لا يحل .

أما إذا كان السائل محتاجاً ، فلا بأس أن يكرر المسألة ثلاثاً ، إعذاراً وإنذاراً ، والأفضل تركه . فإن كان المسئول يعلم بذلك ، وهو قادر على ما سأله ، وجب عليه الإعطاء ، وإن كان جاهلاً به ، فيعطيه ، مخافة أن يكون صادقاً في سؤاله ، فلا يفلح في رده [٣].

وقال الإمام النووي : اتفق العلماء على النهي عن السؤال من غير ضرورة.

واختلف أصحابنا ــ أي الشافعية ــ في مسألة : القادر على الكسب على وجهين :

---

(١) ذكر هذا القول القرطبي في الجامع لأحكام القرآن (٣/٣٤٥) .

(٢) أخرجه الترمذي في سننه : كتاب صفة القيامة والرقائق والورع ، باب (٥٩) (٤/٦٦٧) ح (٢٥١٦) وقال : هذا حديث حسن صحيح .

(٣) ينظر : الجامع لأحكام القرآن (٣/٣٤٦) .

أصحهما : أنها حرام لظاهر الأحاديث .

والثاني : حلال مع الكراهة بثلاث شروط : أن لا يذل نفسه ، ولا يلح في السؤال ، ولا يؤذى المسئول ، فإن فقد أحد هذه الشروط فهي حرام بالاتفاق [١].

✿ ✿ ✿ ✿ ✿ ✿ ✿

** قوله تعالى : ﴿ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴾ :

قال الزمخشري : « التحديث بنعمة الله : شكرها وإشاعتها ، يريد : ما ذكره من نعمة الإيواء والهداية والإغناء ، وما عدا ذلك » [٢].

وقال القرطبي في معنى الآية : « أي : أنشر ما أنعم الله عليك ، بالشكر والثناء ، والتحدث بنعم الله ، والاعتراف بها شكر » [٣].

** واختلف المفسرون في المراد بالنعمة هنا ، على أربعة أقوال :

القول الأول : قال محمد بن إسحاق : هي النبوة . ومعنى الآية عليه : ادعُ وبلغ ما أرسلت به ، وحدث بالنبوة التي أتاك الله . وروي أيضاً عن مجاهد .

القول الثاني : قال مجاهد : تلك النعمة هي : القرآن ، فإن القرآن أعظم ما أنعم الله به على محمد ﷺ ، والتحديث به : أن يقرأه ويقرئه غيره ، ويبين حقائقه لهم . وهو قول : الكلبي ، والكسائي .

قال العلامة الآلوسي عن هذين القولين : « ولا يخفى أن كلا التفسيرين غير مناسب لما قبل » [٤]. أي: لما قبل من آيات سابقة على هذه الآية : ﴿ وَأَمَّا

---

(١) ينظر : شرح النووي على صحيح مسلم (٧/١٢٧) .

(٢) الكشاف (٤/٧٧٣). قال الآلوسي: إن التحدث بنعمة الله ، شكر لها ، كما قال : عمر بن عبد العزيز ، والحسن ، وقتادة ، والفضيل ابن عياض . ينظر : روح المعاني (٣٠/١٦٤) .

(٣) الجامع لأحكام القرآن (٢٠/١٠٢) .

(٤) روح المعاني (٣٠/١٦٤) .

بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴾ ، في هذه السورة الكريمة .

القول الثالث : أن المراد بالنعمة : النعم الثلاث المذكورة قبل : ﴿ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ . وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ . وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغْنَىٰ ﴾ ، والتحدث بها : شكرها عملياً ، من إيواء اليتيم كما آواه اللّه ﷻ ، وإعطاء السائل كما أغناه اللّه ، وتعليم المسترشد كما علمه اللّه ، وهذا من شكر النعمة ، أي : كما أنعم الله عليك فأنعم أنت على غيرك ، تأسياً بفعل الله معك .

القول الرابع : هي عموم في جميع النعم [1].

** الترجيح :

~~~~~~~~~

وأرى ــ والله أعلم ــ أن الراجح من هذه الأقوال ، هو القول الرابع ، القائل بحمل الآية على العموم .

إن الأمر بالتحديث بنعم الله ﷻ ، أعم من أن يكون المراد به نعمة دنيوية أو دينية ، فلفظ الآية يعم كل ما ذكر المفسرون فيها ، كما يعم كل النعم ، من مال وغنى ، وصحة وعافية ، وهداية وإرشاد ، ونصرة وتمكين ، وغير ذلك .

وإن كان أعظم وأشرف هذه النعم ، التي أنعم الله ﷻ بها على رسوله ﷺ ، هي نعمة نزول الوحي على قلبه ، قال تعالى : ﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ﴾ { المائدة: ٣ } ، وقال ﷻ : ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن

---

(١) ينظر : جامع البيان للطبري (٢٣٣/٣٠) والنكت والعيون للماوردي (٤٧٤/٤) والكشاف (٧٧٣/٤) والمحرر الوجيز (٤٩٥/٥) والتفسير الكبير للرازي (٢٠٠/٣١) وتفسير الخازن (٢٦١/٧) وتفسير ابن كثير (٥٢٥/٤) والدر المنثور (٥٤٥/٨) وفتح القدير (٤٥٩/٥) وغيرها .

جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ {الشورى : ٥٢ } .

إلا أن لفظ الآية عام ، يشمل كل ما أفاضه الله ﷻ على رسوله ﷺ من ضروب النعم وفنونها ، ومن جملتها ما تقدم ذكره في هذه السورة ، وما لم يذكر هنا مما أوحى الله إليه به .

إن الحديث عن النعم كلها ظاهرة وباطنة ، أدب النبوة ، ويجب أن يكون أدب كل مسلم .

قال العلامة الفراء : « فكان القرآن أعظم نعمة الله عليه ، فكان يقرؤه ويحدث به ، وبغيره من نعمه » [1].

وقال العلامة النسفي : « والصحيح أنها تعم جميع نعم الله عليه ﷺ ، ويدخل تحته تعليم القرآن والشرائع ، والله أعلم » [2].

وقال العلامة الشوكاني : « أمره ﷻ بالتحدث بنعم الله عليه ﷺ ، وإظهارها للناس ، وإشهارها بينهم . **والظاهر** : أن النعمة على العموم ، من غير تخصيص بفرد من أفرادها ، أو نوع من أنواعها » [3].

** **وفي حمل النعمة هنا على العموم ، تكون الآية** : ﴿ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴾ تذييلاً جامعاً .

قال العلامة ابن عاشور : « وليس المراد ﴿ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ ﴾ نعمة خاصة ، وإنما أريد الجنس ، فيفيد عموماً في المقام الخطابي ، أي : حدث ما أنعم الله به عليك من النعم ، فحصل في ذلك الأمر ، شكر نعمة الإغناء ، وحصل الأمر بشكر

---

(١) معاني القرآن للفراء (٢٧٥/٣) .
(٢) تفسير النسفي (٣٤٦/٤) .
(٣) فتح القدير (٤٥٩/٥) .
~~~~~~~~~

جميع النعم ، لتكون الجملة تذييلاً جامعاً » [١].

** **والتحديث** : الإخبار ، أي: أخْبِر بما أنعم الله عليك اعترافاً بفضله ، وذلك من الشكر [٢].

وفي قراءة علي ﷺ ــ وهي شاذة ــ : « فَخَبِّر » [٣].

** وآثر ﷺ التعبير بقوله :﴿ فَحَدِّثْ ﴾ على التعبير بـــ « فَخَبِّر » ؛ ليكون ذكر النعمة منه ﷺ حديثاً عنده لا ينساه ، ويعيده مرة بعد أخرى [٤].

وعليه ، فالتحديث يقتضي المداومة والتكرار ، والإشاعة أكثر من مرة ، أما الإخبار فلا يقتضي ذلك ، بل يكفي أن تقول الخبر مرة واحدة ، فيكون إخباراً .

** **والخطاب في قوله تعالى : ﴿ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴾ للنبي ﷺ** ، والحكم عام له ولغيره [٥].

قال العلامة الجصاص عن هذه الآية : « وهذا وإن كان خطاباً للنبي ﷺ ، فإنه قد أريد به جميع المكلفين » [٦].

وقال القاضي عياض : « من شكر النعمة التحدث بها ، وهذا خاص له ، عام لأمته » [٧].

---

(١) التحرير والتنوير (٤٠٣/٣٠) .

(٢) ينظر : المرجع السابق نفسه .

(٣) ينظر : معاني القرآن للفراء (٢٧٤/٣) ومختصر في شواذ القرآن لابن خالويه (صـ ١٧٥) وذكر أن « حدث » و« خبّر » سواء . والكشاف (٧٧٤/٤) .

(٤) ينظر : التفسير الكبير للرازي (٢٠٠/٣١) والفتوحات الإلهية للجمل (٣٥٠/٨) وروح المعاني (١٦٥/٣٠) .

(٥) ينظر : الجامع لأحكام القرآن للقرطبي (١٠٢/٢٠) .

(٦) أحكام القرآن للجصاص (٣٧٢/٥) .

(٧) الشفا بتعريف حقوق المصطفى ، للقاضي ، أبي الفضل عياض اليحصبي ــ ت ٥٤٤ هـــ (٣٧/١) دار الفكر ــ بيروت ، ط / ١٤٠٩هـ - ١٩٨٨م .

وقال العلامة الشوكاني : « هذه النواهي لرسول الله ﷺ ، هي نواهٍ له ولأمته ، لأنهم أسوته ، فكل فرد من أفراد هذه الأمة منهيّ بكلّ فرد من أفراد هذه النواهي » [١].

وقال العلامة ابن عاشور : والخطاب في قوله تعالى : ﴿ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴾ للنبي ﷺ ، فمقتضى الأمر في المواضع الثلاثة ﴿ فَأَمَّا ٱلْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ . وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنْهَرْ . وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴾ ، أن تكون خاصة به ، وأصل الأمر الوجوب ، فيعلم أن النبي ﷺ واجب عليه ما أُمِر به .

وأما مخاطبة أمته بذلك ، فتجري على أصل مساواة الأمة لنبيها ﷺ فيما فرض عليه ، ما لم يدلّ دليل على الخصوصية . فأما مساواة الأمة له في منع قهر اليتيم ، ونهر السائل ، فدلائله كثيرة مع ما يقتضيه أصل المساواة .

وأما مساواة الأمة له في الأمر بالتحدث بنعمة الله ، فإن نعم الله على نبيه ﷺ شتّى ، منها ما لا مطمع لغيره من الأمة فيه ، مثل نعمة الرسالة ، ونعمة القرآن ، ونحو ذلك من مقتضيات الاصطفاء الأكبر . ونعمة الرب في الآية مُجملة . فنعم الله التي أنعم بها على نبيه ﷺ كثيرة .

منها ما يجب تحديثه ﷺ به ، وهو تبليغه الناس أنه رسول من الله ، وأن الله أوحى إليه ، وذلك داخل في تبليغ الرسالة ، وقد كان يُعلم الناسَ الإسلام ، فيقول لمن يخاطبه : أن تشهد أن لا إله إلا الله ، وأني رسول الله .

ومنها تعريفه الناس ما يجب له ﷺ من البر والطاعة ، كقوله ﷺ لمن قال له : « اعدل يا رسول الله . فقال : أيأمنُني الله على وحيه ، ولا تأمنوني » [٢].

---

(١) فتح القدير (٤٥٩/٥) .

(٢) لم أقف عليه بهذا اللفظ ، وإنما في صحيح البخاري : كتاب الأنبياء ، باب (٩) قوله تعالى : ﴿ وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ﴾ { الحاقة : ٦ } (١٢١٩/٣) ح (٣١٦٦) من حديث أبي سعيد

ومنها ما يدخل التحديث به في واجب الشكر على النعمة ، فهذا وجوبه على النبي ﷺ خالص من عُروض المعارض ، لأن النبي ﷺ معصوم من عروض الرياء ، ولا يظن الناس به ذلك ، فوجوبه عليه ثابت .

** **وأما الأمة** ، فقد يكون التحديث بالنعمة منهم محفوفاً برياء أو تفاخر . وقد ينكسر له خاطر من هو غير واجد ، مثل النعمة المتحدث بها .

وهذا مجال للنظر في المعارضة بين المقتضي والمانع ، وطريقة الجمع بينهما إن أمكن أو الترجيح لأحدهما [1].

متى يجوز التحدث بنعم الله ﷻ ؟

** **وعلى هذا ، فالأمر الوارد هنا بالتحدث بنعم الله** ، والاعتراف بها ، لا يجوز إلا إذا كان على وجه الشكر ، وبعد وقوعها ، وأن يظن المتحدث أن غيره يقتدي به ، وأن يأمن على نفسه الفتنة والإعجاب .

أما إذا أراد به الرياء والافتخار ، أو ظن أن ينكسر له خاطر من هو غير واجد مثل النعمة المتحدث بها ، فلا يجوز ، بل الستر أفضل [2].

عَنِ النُّعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ ﷺ ، قَالَ : قَالَ النَّبِيُّ ﷺ عَلَى الْمِنْبَرِ : « مَنْ لَمْ يَشْكُرِ الْقَلِيلَ ، لَمْ يَشْكُرِ الْكَثِيرَ ، وَمَنْ لَمْ يَشْكُرِ النَّاسَ ، لَمْ يَشْكُرِ اللَّهَ ، وَالتَّحَدُّثُ بِنِعْمَةِ اللَّهِ

الخدري ﷺ ، أن النبي ﷺ قال لرجل قال له : اتَّقِ اللَّهَ يَا مُحَمَّدُ . فَقَالَ ﷺ : « مَنْ يُطِعِ اللَّهَ إِذَا عَصَيْتُ ، أَيَأْمَنُنِي اللَّهُ عَلَى أَهْلِ الأَرْضِ ، ولا تَأْمَنُونِي » . فَسَأَلَهُ رَجُلٌ قَتْلَهُ ــ أَحْسِبُهُ خَالِدَ بْنَ الْوَلِيدِ ــ فَمَنَعَهُ ... » . وقوله ﷺ : « أيأمنني الله على أهل الأرض » ، أي : على تبليغ الوحي وأداء الرسالة إليهم . ينظر : حاشية السندي على سنن النسائي (١١٨/٧) .

(١) ينظر : التحرير والتنوير (٤٠٣/٣٠ – ٤٠٤) .

(٢) ينظر : الكشاف (٧٧٤/٤) والتفسير الكبير للرازي (٢٠٠/٣١) والتسهيل لعلوم التنزيل (٢٠٥/٤) والتحرير والتنوير (٤٠٤/٣٠) .

شُكْرٌ ، وَتَرْكُهَا كُفْرٌ [1]، وَالْجَمَاعَةُ رَحْمَةٌ ، وَالْفُرْقَةُ عَذَابٌ » [2].

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ ، قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « مَنْ لا يَشْكُرُ النَّاسَ ، لا يَشْكُرُ اللَّهَ » [3].

وعَنْ جَابِرٍ ــ رضي الله عنهما ــ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ ، قَالَ : « مَنْ أُعْطِيَ عَطَاءً فَوَجَدَ ، فَلْيَجْزِ بِهِ ، وَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَلْيُثْنِ ، فَإِنَّ مَنْ أَثْنَى فَقَدْ شَكَرَ ، وَمَنْ كَتَمَ فَقَدْ كَفَرَ » [4].

** **ومن التحديث بالنعمة** ، إظهارها بالملبس والمركب ، قال ﷺ : « إِنَّ

---

(١) **الكفر نوعان** : اعتقادي ، وعملي . فالاعتقادي مقره القلب . والعملي محله الجوارح . فمن كان عمله كفراً لمخالفته للشرع ، وكان مطابقاً لما وقر في قلبه من الكفر به ، فهو الكفر الاعتقادي ، وهو الكفر الذي لا يغفره الله ، ويخلد صاحبه في النار أبداً .

وأما إذا كان عمله مخالفاً لما وقر في قلبه ، فهو مؤمن بحكم ربه ، ولكنه يخالفه بعمله ، فكفره كفر عملي فقط ، وليس كفراً اعتقادياً ، فهو تحت مشيئة الله تعالى ، إن شاء عذبه ، وإن شاء غفر له ، وعلى هذا النوع من الكفر يحمل الحديث الذي معنا ، والأحاديث التي فيها إطلاق الكفر على من فعل شيئاً من المعاصي من المسلمين . ينظر حول هذا المعنى : حكم تارك الصلاة ، للشيخ / محمد ناصر الدين الألباني (صـ ٧٢ – ٧٨) دار الجلالين ــ الرياض ، ط / الأولى ١٤١٢هـ .

(٢) أخرجه أحمد في المسند (٣٧٥/٤) ح (١٩٣٦٩) وقال الشيخ شعيب الأرنؤوط : ضعيف دون قوله : « ومن لم يشكر الناس ، لم يشكر الله » . فهو صحيح لغيره . وأورده الهيثمي في مجمع الزوائد (٢١٧/٥) وقال : رواه أحمد والبزار والطبراني ، ورجالهم ثقات .

(٣) أخرجه الترمذي في سننه : كتاب البر والصلة ، باب (٣٥) ما جاء في الشكر لمن أحسن إليك (٣٣٩/٤) ح (١٩٥٤) وقال الترمذي : هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ . وفي رواية ثانية عن أبي سعيد الخدري ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : « مَنْ لَمْ يَشْكُرِ النَّاسَ ، لَمْ يَشْكُرِ اللَّهَ » . أخرجها الترمذي في نفس الموضع السابق ، ح (١٩٥٥) وقال : وفي الباب عن أبي هريرة ، والأشعث بن قيس ، والنعمان بن بشير ، وهذا حديث حسن صحيح .

(٤) أخرجه الترمذي في سننه : كتاب البر والصلة ، باب (٨٧) ما جاء في المتشبع بما لم يعطه (٣٧٩/٤) ح (٢٠٣٤) قال الترمذي : هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ غَرِيبٌ ، وفي الباب عن : أسماء بنت أبي بكر ، وعائشة . ومعنى قوله : « وَمَنْ كَتَمَ فَقَدْ كَفَرَ » . يَقُولُ : قَدْ كَفَرَ تِلْكَ النِّعْمَةَ . وحسنه الألباني على سنن الترمذي (٣٤/٥) ح (٢٠٣٤) .

اللَّهَ يُحِبُّ أَنْ يَرَى أَثَرَ نِعْمَتِهِ عَلَى عَبْدِهِ » [١].

** ولذا استحب بعض السلف ﷺ التحدث بما عمله من الخير . إذا لم يرد به الرياء والافتخار ، وعلم الاقتداء به [٢] ، ومن ذلك :

ما ورد في أثر طويل : أن علياً ﷺ سُئل عن الصحابة ﷺ ؟ فقَالَ للسائلين: عَنْ أَيِّهِمْ تَسألون ؟ فذكروا له : ابن مسعود ، وأبا ذر ، وحذيفة ، وسلمان الفارسي ، وعمار بن ياسر ، فأثنى عليهم .

فقالوا له : فَحَدِّثْنَا عَنْ نَفْسِكَ ؟ قَالَ : « مَهْلاً ، نَهَى اللَّهُ عَنِ التَّزْكِيَةِ » . فَقَالَ لَهُ رَجُلٌ : فَإِنَّ اللَّهَ ﷻ يَقُولُ : ﴿ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴾ . قَالَ : « فَإِنِّي أُحَدِّثُ بِنِعْمَةِ رَبِّي ، كُنْتُ إِذَا سَأَلْتُ أُعْطِيتُ ، وَإِذَا سَكَتُّ ابْتُدِيتُ ، وبين الجوانح [٣] علم جَم ، فاسألوني » [٤].

وما روي عن الحسين بن علي بن أبي طالب ــ رضي الله عنهما ــ أنه قال : « إذا عملت خيراً ، فحدث إخوانك » [٥]. أي : ليقتدوا بك .

---

(١) أخرجه الترمذي في سننه : كتاب الأدب ، باب (٥٤) ما جاء إن الله تعالى يحب أن يرى أثر نعمته على عبده (١٢٣/٥) ح (٢٨١٩) من حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده ، وقال : وهَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ .

(٢) ينظر : روح المعاني (١٦٤/٣٠) .

(٣) الجوَانِح : الأضلاع التي تحت الترائب مِمَّا يَلِي الصَّدْر، كالضلوع مما يلي الظهر، الواحدة جَانِحَة . ينظر : النهاية لابن الأثير (٣٠٥/١) ومختار الصحاح (صـ ٤٨) مادة « جنح » .

(٤) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير (٢١٣/٦) ح (٦٠٤١) . وصححه محمد بن عبد الواحد الحنبلي المقدسي في الأحاديث المختارة (١٢٢ – ١٢٦) ح (٤٩٤) . وأورده الهيثمي في مجمع الزوائد (١٥٨/٩) ثم قال : رواه الطبراني من طريقين ، وفي أحسنهما حبان بن علي ، وقد اختلف فيه ، وبقية رجالها رجال الصحيح .

(٥) أخرجه بهذا اللفظ ابن أبي حاتم في تفسيره (٣٤٤٤/١٠) رقم (١٩٣٨٦) وهو بنفس اللفظ في : الكشاف (٧٧٣/٤) والتفسير الكبير للرازي (٢٠٠/٣١) وتفسير ابن كثير (٥٢٥/٤) والدر المنثور (٥٤٥/٨) .

وقال أبو إسحاق السبيعي [١] : « يا معشر الشباب ، اغتنموا قلما تمر بي ليلة ، إلا وأقرأ فيها ألف آية ، وإني لأقرأ البقرة في ركعة ، وإني لأصوم أشهر الحرم ، وثلاثة أيام من كل شهر ، والاثنين والخميس ، ثم تلا : ﴿ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴾ » [٢].

وكان أبو فراس عبد الله بن غالب ، إذا أصبح يقول : لقد رزقني الله البارحة كذا ، قرأت كذا ، وصليت كذا ، وذكرت الله كذا ، وفعلت كذا ، فقلنا له : يا أبا فراس ، إن مثلك لا يقول هذا !! قال : يقول الله تعالى : ﴿ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴾ ، وتقولون أنتم : لا تحدث بنعمة الله [٣].

** واشترط بعض العلماء : أن يكون التحدث بالنعمة ، للثقة من الإخوان ، ممن يثق بهم الشخص ، دون غيرهم [٤].

وسُئل الْحَسَنُ بن عَلِيّ بْن أَبِي طَالِبٍ عَنْ قَوْلِهِ: ﴿ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ ، فَقَالَ : الرَّجُلُ الْمُؤْمِنُ يَعْمَلُ عَمَلاً صَالِحاً ، فَيُخْبِرُ بِهِ أَهْلَ بَيْتِهِ » [٥].

وعن عمرو بن ميمون ﷺ ، قال : « إذا لقي الرجل من إخوانه ، من يثق به ، يقول له : رزق الله من الصلاة البارحة كذا وكذا » [٦].

---

(١) هو : أبو إسحاق عمرو بن عبد الله السبيعي الهمداني الكوفي الحافظ ، شيخ الكوفة ، وعالمها ومحدثها ، وكان ــ رحمه الله ــ من العلماء العاملين ، ومن جلة التابعين ، قال : ولدت لسنتين بقيتا من خلافة عثمان ، ورأيت علي بن أبي طالب يخطب . توفي سنة سبع وعشرين . ينظر : سير أعلام النبلاء (٣٩٢/٥) .

(٢) أخرجه الحاكم في المستدرك (٥٧٤/٢) ح (٣٩٤٧) وسكت عنه ، كما سكت عنه الذهبي .

(٣) ينظر : الجامع لأحكام القرآن (١٠٢/٢٠) .

(٤) ينظر : أحكام القرآن لابن العربي (٤١٠/٤) والتحرير والتنوير (٤٠٤/٣٠) .

(٥) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره (٣٤٤٤/١٠) رقم (١٩٣٨٥) وأورده السيوطي في الدر المنثور (٥٤٥/٨) وزاد نسبته لابن مردويه .

(٦) هكذا ذكره القرطبي في تفسيره (١٠٢/٢٠) وأخرجه الحاكم في المستدرك (٥٧٤/٢) ح (٣٩٤٨)

ونقل القرطبي قول الحسن بن علي ــ السابق ــ بلفظ : « إذا أصبت خيراً، أو عملت خيراً ، فحدث به الثقة من إخوانك » [١].

التحدث بالنعمة صورة من صور شكر المنعم ﷻ

** إذاً فـ « التحدث بالنعمة ــ وبخاصة نعمة الهدى والإيمان ــ صورة من صور الشكر للمنعم ﷻ ، يكملها البر بالعباد ، وهو المظهر العملي للشكر»[٢]؛ لأن الشكر يكون بالقلب ، وباللسان ، وبالجوارح .

يقول حجة الإسلام أبو حامد الغزالي : الشكر « يتعلق بالقلب ، وباللسان ، وبالجوارح .

أما بالقلب ، فقصد الخير ، وإضماره لكافة الخلق .

وأما باللسان ، فإظهار الشكر لله تعالى بالتحميدات الدالة عليه .

وأما بالجوارح ، فاستعمال نعم الله تعالى في طاعته ، والتوقي من الاستعانة بها على معصيته » [٣].

ويقول أيضاً : « ولا يتصور شكر النعمة ، إلا بعد معرفتها ، ثم إنهم إن عرفوا نعمة ، ظنوا أن الشكر عليها أن يقول بلسانه : « الحمد لله ، الشكر لله » ، **ولم يعرفوا أن معنى الشكر : أن يستعمل النعمة في إتمام الحكمة التي أريدتُ بها** ، وهى طاعة الله ﷻ ، فلا يمنع من الشكر بعد حصول هاتين المعرفتين ، إلا غلبة

وسكت عنه ، كما سكت عنه الذهبي . بلفظ : عن عمرو بن ميمون قال : كان يلقى الرجل من إخوانه فيقول : « لقد رزقني الله البارحة من الصلاة كذا ، ورزق من الخير كذا » .

(١) ينظر : الجامع لأحكام القرآن (١٠٢/٢٠) .

(٢) في ظلال القرآن (٣٩٢٤/٦) .

(٣) إحياء علوم الدين ، للإمام / أبي حامد محمد بن محمد الغزالي ــ ت ٥٠٥هـ (٨٤/٤) دار المعرفة ــ بيروت ، بدون .

الشهوة ، واستيلاء الشيطان » [١].

** **فإن قال قائل** : إن قوله تعالى : ﴿ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴾ ، وهذه الأحاديث ــ السابق ذكرها ــ الواردة في التحدث بالنعم ، تتعارض مع قول النبي ﷺ : « اسْتَعِينُوا عَلَى إِنْجَاحِ الْحَوَائِجِ بِالْكِتْمَانِ ، فَإِنَّ كُلَّ ذِي نِعْمَةٍ مَحْسُود » [٢].

فالجواب : أن هذه الآية ، وتلك الأحاديث ، محمولة على ما بعد وقوع النعم ، فلا تكون معارضة للحديث السابق ، نعم إن ترتب على التحدث بها ضرر ، كحسد ، فالكتمان أولى [٣].

✿ ✿ ✿ ✿ ✿ ✿

---

(١) المرجع السابق (١٢٣/٤) .

(٢) أخرجه الطبراني في المعاجم الثلاثة ، من حديث معاذ بن جبل ﷺ ، وقال بعد ما أورده في المعجم الأوسط (٥٥/٣) ح (٢٤٥٥) : « لا يروى هذا الحديث عن معاذ إلا بهذا الإسناد ، تفرد به سعيد ». وقال الهيثمي : رواه الطبراني في الثلاثة ، وفيه سعيد بن سلام العطار ، قال العجلي : لا بأس به ، وكذبه أحمد وغيره ، وبقية رجاله ثقات ، إلا أن خالد بن معدان ، لم يسمع من معاذ . وعن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ : « إن لأهل النعم حساداً فاحذروهم » . رواه الطبراني في الأوسط ، وفيه إسماعيل بن عمر البجلي ، وهو ضعيف ، وقد وثقه ابن حبان . مجمع الزوائد (١٩٥/٨) . وعلى هذا فالحديث ضعيف .

(٣) ينظر : كشف الخفا للعجلوني (١٣٥/١) وفيض القدير شرح الجامع ، للعلامة /عبد الرؤوف المناوي (٤٩٣/١) المكتبة التجارية الكبرى ــ القاهرة ، ط / الأولى ١٣٥٦هـ .

الحكمة في تأخير حق الله ﷻ عن حق اليتيم والسائل

ذكر العلماء في ذلك وجوه :

أحدها : أن التقديم لمصلحة المخلوقات على حق الله ، لأن الله ﷻ غني عن العالمين ، واليتيم والسائل محتاجان ، وتقديم حق المحتاج أولى .

وثانيها : أنه ﷻ وضع في حظهما الفعل ، ورضي لنفسه بالقول .

وثالثها : أن المقصود من جميع الطاعات ، استغراق القلب في ذكر الله ﷻ ، فجعل خاتمة هذه الطاعات ، تحدث القلب واللسان بنعم الله تعالى ، حتى تكون ختم الطاعات على ذكر الله [1].

وقيل : لتقديم التخلية على التحلية ، أو للترقي ، أو لمراعاة الفواصل . ذكر هذه الوجوه الثلاثة الأخيرة العلامة الآلوسي ، وقال : ونظر في كل ذلك [2].

التناسب بين تعداد النعم والوصايا

** إذا كان الله ﷻ عدد على رسوله ﷺ هذه النعم الثلاث : ﴿ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ . وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ . وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغْنَىٰ ﴾ ، فقد وصاه بثلاث وصايا : ﴿ فَأَمَّا ٱلْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ . وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنْهَرْ . وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴾ ، فكان في كل نعمة وصية مناسبة لها .

فبإزاء قوله ﷻ : ﴿ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ ﴾ ، قوله : ﴿ فَأَمَّا ٱلْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ﴾ .

---

(١) ينظر : التفسير الكبير للرازي (٢٠٠/٣١) والفتوحات الإلهية للجمل (٣٥٠/٨) .

(٢) ينظر : روح المعاني (١٦٥/٣٠) .

وبإزاء قوله ﷻ : ﴿ وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ ﴾ ، قوله ﷻ : ﴿ وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنْهَرْ ﴾ .

هذا على قول من قال : إن « السائل » هنا هو السائل عن العلم والدين ، وليس بسائل المال ، كما سبق بيانه . لأن الضلال يستعدي السؤال عن الطريق ، فالضال معتبر من صنف السائلين .

والسائل عن الطريق قد يتعرض لحماقة المسئول ، فجعل الله ﷻ الشكر عن هدايته ﷻ إلى طريق الخير ، أن يوسع باله للسائلين .

وبإزاء قوله ﷻ : ﴿ وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغْنَىٰ ﴾ ، قوله : ﴿ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴾ . فإن الإغناء نعمة ، فأمر الله ﷻ رسوله ﷺ أن يظهر نعمته عليه بالحديث عنها ، وإعلان شكرها .

** **وأما على قول من قال : إن « السائل » هنا ، هو سائل المحتاج ، فقد** جعل قوله تعالى :

﴿ فَلَا تَنْهَرْ ﴾ بإزاء قوله : ﴿ وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغْنَىٰ ﴾ .

وجعل قوله : ﴿ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴾ ، بإزاء قوله : ﴿ وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ ﴾ [1].

أما قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ ﴾ ، فهو فبإزاء قوله : ﴿ فَأَمَّا ٱلْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ﴾ .

كما هو على القول الأول، في أن المراد بالسائل: السائل عن العلم والدين.

** **وحاصل معنى هذه الآيات :** أنك كنت يتيماً وضالاً وعائلاً ، فآواك الله،

---

(١) ينظر : المحرر الوجيز (٤٩٤/٥ – ٤٩٥) والكشاف (٧٧٤/٤) ومفاتيح الغيب للرازي (١٩٩/٣١) تفسير البحر المحيط (٤٨٢/٨) والتحرير والتنوير (٤٠٢/٣٠) .

وهداك ، وأغناك ، فمهما يكن من شيء ، فلا تنس نعمة الله عليك في هذه الثلاث ، واقتد بالله ﷻ ، فَتَعَطَّفْ على اليتيم وآوِهِ ، فقد ذقت اليتم وهوانه ، ورأيت كيف فعل الله بك ، وتَرَحَّمْ على السائل ، وتفقده بمعروفك ، ولا تزجره وترده عن بابك ، كما رحمك ربك ، فأغناك بعد الفقر ، وحدّث بنعم الله كلها ، ويدخل تحته هدايتك الضُّلال ، وتعليمهم الشرائع والقرآن ، مقتدياً بالله في أن هداك وأرشدك من الضلال .

وفي الدعاء النبوي المأثور : « ... واجعلنا شاكرين لنِعْمَتِك ، مُثْنِينَ بها عليكَ ، قَابِلِيهَا ، وأتِمَّها علينا » [1]،[2]..... **اللهم آمين** ..... ولننتقل إلى الأحكام.

(١) جزء من حديث ، أخرجه : أبو داود في سننه : كتاب الصلاة ، باب (١٨٣) التشهد (٢٥٤/١) ح (٩٦٩) وابن حبان في صحيحه (٢٧٧/٣) ح (٩٩٦) من حديث ابن مسعود ﷺ . وصححه الألباني على سنن أبي داود .

(٢) ينظر : الكشاف (٧٧٤/٤) وتفسير ابن كثير (٥٢٤/٤) .

التكبير بعد قراءة سورة الضحى

يستحب التكبير من « سورة الضحى » مع خاتمة كل سورة ، إلى أن يختم القرآن ، وهي قراءة أهل مكة ، أخذها ابن كثير [1]، عن مجاهد ، عن ابن عباس ، عن أبي بن كعب ، عن النبي ﷺ [2].

روي عن عبد الله بن كثير ، أنه قرأ على مجاهد فلما بلغ : ﴿ وَٱلضُّحَىٰ ﴾ ، أمره أن يكبر حتى يختم مع خاتمة كل سورة ، وأخبره مجاهد أنه قرأ على ابن عباس فأمره بذلك ، وأخبره ابن عباس أنه قرأ على أبي بن كعب فأمره بذلك ، وأخبره أبي أنه قرأ على رسول الله ﷺ فأمره بذلك [3].

(١) المراد به : **عبد الله بن كثير بن عمرو الكناني ، مولاهم الداري المكي** ، وكنيته أبو معبد ، أحد القراء السبعة ، وإمام المكيين في القراءة ، كما كان قاضي الجماعة بمكة ، وهو من التابعين ، قرأ على عبد الله بن السائب المخزومي ، ومجاهد ، ودرباس مولى ابن عباس ، وقرأ عليه : أبو عمرو بن العلاء ، وشبل بن عباد ، وإسماعيل بن عبد الله بن قسطنطين ، وطائفة ، توفي ــ رحمه الله ــ بمكة سنة عشرين ومائة . ينظر : كتاب التيسير في القراءات السبع ، للإمام / أبي عمرو عثمان ابن سعيد الداني ــ ت٤٤٤هـ ، عنى بتصحيحه / أوتو برتزل (صـ ١٧) دار الكتب العلمية ــ بيروت ، ط / الأولى ١٤١٦هـ ــ ١٩٩٦م ، ومعرفة القراء الكبار على الطبقات والأعصار ، للحافظ / أبي عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي ــ ت ٧٤٨هـ ، تحقيق / شعيب الأرنؤوط . وآخرون (٨٦/١) مؤسسة الرسالة ــ بيروت ، ط / الأولى ١٤٠٤هـ .

(٢) **قال الحافظ ابن كثير** : روينا من طريق أبي الحسن أحمد بن محمد بن عبد الله بن أبي بَزَة المقرئ ، قال : قرأت على عكرمة بن سليمان ، وأخبرني أنه قرأ على إسماعيل بن عبد الله بن قسطنطين ، وشبل بن عبّاد ، فلما بلغت : ﴿ وَٱلضُّحَىٰ ﴾ ، قالا لي : كبر حتى تختم مع خاتمة كل سورة ، فإنا قرأنا على ابن كثير فأمرنا بذلك . تفسير ابن كثير(٥٢٢/٤) .

(٣) رواه البيهقي في شعب الإيمان (٣٧٠/٢) والحاكم في المستدرك : كتاب معرفة الصحابة ، باب مناقب أبي بن كعب (٣٤٤/٣) ح (٥٣٢٥) وقال : هذا حديث صحيح الإسناد ، ولم

** ثم اختلف القراء في موضع هذا التكبير وكيفيته :

فقال بعضهم : يكبر من آخر ﴿ وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰ ﴾ ، وخاتمة كل سورة بعدها .

وقال آخرون : من آخر ﴿ وَٱلضُّحَىٰ ﴾ ، وخاتمة كل سورة بعدها .

وكيفية التكبير عند بعضهم ، أن يقول : الله أكبر ، ويقتصر ، ومنهم من يقول : الله أكبر ، لا إله إلا الله ، والله أكبر .

قال الحافظ ابن كثير : « وذكر القراء في مناسبة التكبير من أول سورة «الضحى » : أنه لما تأخر الوحي عن رسول الله ﷺ وفتر تلك المدة ، ثم جاءه الملك، فأوحى إليه : ﴿ وَٱلضُّحَىٰ . وَٱلَّيۡلِ إِذَا سَجَىٰ ﴾ السورة بتمامها ، كبر فرحاً

يخرجاه . وقال الذهبي : البزي قد تكلم فيه . ورواه الحافظ الذهبي ــ ت ٧٤٨هـ ــ في {ميزان الاعتدال في نقد الرجال ، تحقيق / علي البجاوي (١٤٥/١) دار المعرفة ــ بيروت ــ بدون} ثم قال : « هذا حديث غريب ، وهو مما أنكر على البزي ، قال أبو حاتم : هذا منكر » .

وقال الحافظ ابن كثير بعد ذكره لهذا الحديث : « فهذه سُنة تفرد بها أبو الحسن أحمد بن محمد بن عبد الله البزي ، من ولد القاسم بن أبي بزة ، وكان إماماً في القراءات ، فأما في الحديث فقد ضَعَّفَه أبو حاتم الرازي ، وقال : لا أحدث عنه ، وكذلك أبو جعفر العقيلي ، قال : هو منكر الحديث .

لكن حُكي عن الشافعي ﷺ : أنه سمع رجلاً يكبر هذا التكبير في الصلاة ، فقال له: أحسنت وأصبت السنة . وهذا يقتضي صحة هذا الحديث » . تفسير ابن كثير (٥٢٢/٤) .

وقال العلامة الزركشي : « رواه ابن خزيمة ، والبيهقي في شعب الإيمان ، وقواه ، ورواه من طريق موقوفاً على أُبى بسند معروف ، وهو حديث غريب ، وقد أنكره أبو حاتم الرازي على عادته في التشديد ، واستأنس له الحليمي بأن القراءة تنقسم إلى أبعاض متفرقة ، فكأنه كصيام الشهر ، وقد أمر الناس أنه إذا أكملوا العدة ، أن يكبروا الله على ما هداهم ، فالقياس أن يكبر القارئ إذا أكمل عدة السور » . البرهان في علوم القرآن للزركشي (٤٧٢/١) .

وسروراً [١] . ولم يرو ذلك بإسناد يحكم عليه بصحة ولا ضعف ، فالله أعلم » [٢] .

وقيل : نكتة التكبير ، التشبيه للقراءة بصوم رمضان ، إذا أكمل عدته يكبر، فكذا هنا يكبر إذا أكمل عدة السورة .

وصفة هذا التكبير : أن يقف بعد كل سورة وقفة ، ويقول : الله أكبر .

ولا يصل آخر السورة بتكبيره ، بل يفصل بينهما بسكتة .

** ولا يكبر في قراءة الباقين { أي : غير ابن كثير } .

وحجتهم : أن في ذلك ذريعة إلى الزيادة في القرآن ، بأن يداوم عليه ، فيتوهم أنه من القرآن ، فيثبتوه فيه [٣] .

قال العلامة القرطبي : « القرآن ثبت نقلاً متواتراً ، سوره وآياته وحروفه، لا زيادة فيه ولا نقصان ، فالتكبير على هذا ليس بقرآن .

فإذا كان ﴿ بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾ المكتوب في المصحف بخط المصحف ، ليس بقرآن [٤]، فكيف بالتكبير الذي هو ليس بمكتوب ؟

---

(١) وكأن المعنى في ذلك : أن الوحي تأخر عن النبي ﷺ أياماً ، فقال ناس من المشركين : قد ودعه صاحبه وقلاه ، فنزلت هذه السورة ، فقال : الله أكبر .

(٢) تفسير ابن كثير (٥٢٢/٤) . قال سامي بن محمد سلامة ، محقق تفسير ابن كثير : « والصواب ، أن هذا مما لم يصح فيه شيء عن النبي ﷺ ، ولا عن صحابته ﷺ ، وما روى فيها مما لا تقوم به الحجة . وشيخ الإسلام ابن تيمية ، قد تكلم على هذا التكبير كلاماً شديداً في الفتاوى (٤١٧/١٣ – ٤١٩) وانظر : الآداب الشرعية لابن مفلح (٣١٠/٢) ومرويات دعاء ختم القرآن لبكر أبو زيد (صـ ٦) ومن كتابه استفدت هذا ، فجزاه الله خيراً » . هامش تفسير ابن كثير (٤٢٣/٨) دار طيبة ، ط / الثانية ١٤٢٠هـ – ١٩٩٩م .

(٣) ينظر : الجامع لأحكام القرآن (١٠٣/٢٠) والبرهان للزركشي (٤٧٢/١ – ٤٧٣) والنشر في القراءات العشر ، لابن الجزري (٤٤٧/٢) والإتقان للسيوطي (٢٩٤/١) .

(٤) أجمع العلماء على أن البسملة بعض آية من سورة النمل ، قال تعالى : ﴿ إِنَّهُۥ مِن سُلَيۡمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾ ، واختلفوا في البسملة الواقعة في أوائل السور على ثلاثة أقوال : القول الأول : أن البسملة في أوائل السور آية تامة من القرآن الكريمة مفردة ، لأنها كُتبت

أما أنه ثبت سنة بنقل الآحاد ، فاستحبه ابن كثير ، لا أنه أوجبه فخطأ من تركه » [١].

وحكم الإمام ابن تيمية على من قال : إن التكبير من القرآن بالضلال ، فقال : « وأما التكبير : فمن قال : إنه من القرآن ، فإنه ضال باتفاق الأئمة ، والواجب أن يستتاب ، فإن تاب وإلا قتل ، فكيف مع هذا ينكر على من تركه ؟

ومن جعل تارك التكبير مبتدعاً ، أو مخالفاً للسنة ، أو عاصياً ، فإنه إلى الكفر أقرب منه إلى الإسلام ، والواجب عقوبته ، بل إن أصر على ذلك بعد وضوح الحجة ، وجب قتله .

ولو قدر أن النبي ﷺ أمر بالتكبير لبعض من أقرأه ، كان غاية ذلك يدل

- في المصحف ، نزلت للفصل بين سور القرآن ، وليست من الفاتحة ولا من غيرها ، وهذا هو الصحيح عن الإمامين أبي حنيفة ، وأحمد ، وجمهور أصحابهما ، ونُسب للإمام الشافعي، وهو خلاف المشهور عنه .

قال الإمام ابن تيمية : . وهذا أعدل الأقوال الثلاثة في المسألة . . مجموع الفتاوى لابن تيمية (٣٩٩/١٣) .

القول الثاني : يرى أن البسملة وإن كانت قرآناً من سورة النمل إلا أنها ليست آية من الفاتحة ، ولا من غيرها من سور القرآن ، لا للفصل ولا للوصل ، وإنما هي للتبرك فقط، وهذا هو مذهب الإمام مالك وأصحابه .

القول الثالث : أن البسملة آية من الفاتحة ، وهذا قول الإمام الشافعي وأصحابه ، لا خلاف بينهم في ذلك ، وهو رواية عن الإمام أحمد ، ذكرها ابن قدامة ، والمشهور عنه القول الأول . ينظر : المبسوط للسرخسي (١٥/١) والمغني لابن قدامة (٢٨٦/١) والجامع لأحكام القرآن للقرطبي (٩٣/١) والمجموع للنووي (٢٢٨٠/٣) ومجموع الفتاوى لابن تيمية (٤١٨/١٣) .

وعليه فما ذكره القرطبي هنا ، هو قول المالكية في البسملة المكتوبة في بداية كل سورة عدا سورة براءة .

(١) الجامع لأحكام القرآن (١٠٣/٢٠) .

على جوازه ، أو استحبابه ، فإنه لو كان واجباً لما أهمله جمهور القراء ، ولم يتفق أئمة المسلمين على عدم وجوبه ، ولم ينقل أحد من أئمة الدين أن التكبير واجب ، وإنما غاية من يقرأ بحرف ابن كثير أن يقول : إنه مستحب » [١].

** وخلاصة القول في هذه المسألة :

أن التكبير بعد قراءة سورة الضحى ، وخاتمة كل سورة بعدها ، مسألة خلافية بين القراء والعلماء ، وعليه ، فلا نقول : إنه يجب لمن ختم القرآن أن يفعله، ولكن نقول : إن من فعله فقد أحسن ، ومن تركه فلا حرج عليه ، فالتكبير مستحب ، وليس بواجب .

---

(١) مجموع الفتاوى لابن تيمية (٤١٧/١٣ – ٤١٩) .

الحلف بالمخلوقات

أقسم الله ﷻ في بداية هذه السورة الكريمة ، بالضحى والليل ، فقال ﷻ : ﴿وَٱلضُّحَىٰ . وَٱلَّيۡلِ إِذَا سَجَىٰ﴾ ، كما أقسم ببعض مخلوقاته ، في عدة سور من القرآن الكريم ، فقال الله ﷻ : ﴿ وَٱلصَّٰٓفَّٰتِ صَفّٗا﴾ { أول الصافات } ، وقال : ﴿وَٱلنَّجۡمِ إِذَا هَوَىٰ﴾ { أول النجم } ، وقال : ﴿ وَٱلسَّمَآءِ وَٱلطَّارِقِ﴾ { أول الطارق } . إلى غير ذلك من الأقسام الواردة في القرآن .

فهل يجوز للعبد أن يقسم بهذه المخلوقات ؟ وهل هذا يتعارض مع ما رواه البخاري في صحيحه ، عن ابْنَ عُمَرَ ــ رضي الله عنهما ــ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « أَلا مَنْ كَانَ حَالِفًا فَلا يَحْلِفْ إِلا بِاللَّهِ ، فَكَانَتْ قُرَيْشٌ تَحْلِفُ بِآبَائِهَا ، فَقَالَ: لا تَحْلِفُوا بِآبَائِكُمْ » [1] ؟

**** ذكر العلماء في الجواب عن إقسام الله ﷻ ببعض مخلوقاته، عدة وجوه:**

الأول : أن الله ﷻ هو صاحب الخلق والأمر ، فله أن يقسم بما شاء من خلقه ، ولا وجه للقياس على إقسامه ﷻ ، لأنه تعالى ﴿ لَا يُسۡـَٔلُ عَمَّا يَفۡعَلُ وَهُمۡ يُسۡـَٔلُونَ ﴾ { الأنبياء : ٢٣ } .

**** أما العباد** ، فليس لهم أن يقسموا بغير الله تعالى، وأسمائه، وصفاته[2].

هذا هو مذهب جمهور العلماء .

روي عن الحسن ﷺ قال : « إن الله تعالى يقسم بما شاء من خلقه ، وليس لأحد أن يقسم إلا بالله » [3].

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب فضائل الصحابة ، باب (٥٦) أيام الجاهلية (٣/١٣٩٤) ح (٤٣٦٢) .

(٢) ينظر : الجامع لأحكام القرآن (١٧/٢٢٣) والمغني لابن قدامة (٩/٣٨٥) .

(٣) أورده السيوطي في الإتقان (٢/٣٥١) وعزاه لابن أبي حاتم ، ولم أقف عليه في تفسيره . وأورده في

الثاني : أن الأقسام إنما تكون بما يعظمه المقسم ، أو يجله ، وهو فوقه ، والله ﷻ ليس شيء فوقه ، فأقسم تارة بنفسه ، وتارة بمصنوعاته ، لأنها تدل على بارئها وصانعها ﷻ ، فهي أثر من آثاره ، والصنعة تدل على الصانع .

الثالث : أنه تعالى يقسم بهذه الأشياء ، تنويهاً بشأنها ، ولفتاً لأنظار الناس إلى ما فيها من منافع ، أو لما لها من فضيلة .

الرابع : أنه على حذف مضاف ، والتقدير : « ورب التين » ، « ورب الشمس » ، « ورب الضحى » ، وكذا باقي ما أقسم به ﷻ .

ولا ملجئ إلى هذا ، ولا موجب له ، ولا وجه له ، فلله ﷻ أن يقسم بما شاء من خلقه . وما لا يحتاج إلى تقدير أولى مما يحتاج إلى تقدير .

الخامس : أن العرب كانت تعظم هذه الأشياء ، وتقسم بها ، فنزل القرآن على ما يعرفون [1].

**** ويؤيد ما ذهب إليه الجمهور- من أنه لا يجوز للعباد القسم بغير الله، أو أسمائه ، أو صفاته** ــ ما روي عن عبد الله بن عمر ــ رضي الله عنهما ــ أن رسول الله ﷺ أدرك عمر ابن الخطاب ﷺ فِي رَكْبٍ ، وَعُمَرُ يَحْلِفُ بِأَبِيهِ ، فَنَادَاهُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « أَلا إِنَّ اللَّهَ ﷻ يَنْهَاكُمْ أَنْ تَحْلِفُوا بِآبَائِكُمْ ، فَمَنْ كَانَ حَالِفاً فَلْيَحْلِفْ بِاللَّهِ ، أَوْ لِيَصْمُتْ » . قَالَ عُمَرُ : فَوَاللَّهِ مَا حَلَفْتُ بِهَا مُنْذُ سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ ذَاكِراً وَلا آثِراً [2] » [3].

الدر المنثور (٤/٤٩٧) عن ميمون بن مهران ، وعزاه لابن أبي شيبة .

(١) ينظر : البرهان للزركشي (٣/٤١) والإتقان للسيوطي (٢/٣٥١) .

(٢) قوله : « ذاكراً ولا آثراً » ، أي : ما حلفت به مُبْتَدِئاً من نفسي ، ولا روَيْتُ عن أحد أنه حَلَفَ بها . يعني لم أقل : إن فلاناً قال وأبي لا أفعل كذا . ينظر : النهاية في غريب الحديث والأثر لابن الأثير (١/٢٢) ومختار الصحاح (صـ ٢) .

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه : كتاب الأدب ، باب (٧٤) من لم ير إكفار من قال ذلك متأولاً أو

وهذا حصر في عدم الحلف بكل شيء سوى الله ﷻ ، وأسمائه ، وصفاته .

قال ابن عبد البر : « والحلف بالمخلوقات كلها ، في حكم الحلف بالآباء ، لا يجوز شيء من ذلك » [١].

وقال الكاساني : ولا يحلف بالآباء والأمهات والأبناء ، ولو حلف بشيء من ذلك لا يكون يميناً ؛ لأنه حلف بغير الله تعالى ، والناس وإن تعارفوا الحلف بهم لكن الشرع نهى عنه .

وعَنْ سَمُرَةَ بن جُنْدُبٍ ﷺ ، عن النبي ﷺ ، قال : « لا تَحْلِفُوا بِالطَّوَاغِيتِ ، وَلا تَحْلِفُوا بِآبَائِكُمْ ، وَاحْلِفُوا بِاللَّهِ ، فَإِنَّهُ أَحَبُّ إِلَيْهِ أَنْ تَحْلِفُوا بِهِ ، وَلا تَحْلِفُوا بِشَيْءٍ مِنْ دُونِهِ » [٢].

وسَمِعَ عبد الله بن عمر رَجُلاً يَقُولُ : لا وَالْكَعْبَةِ . فَقَالَ ابْنُ عُمَرَ : لا يُحْلَفُ بِغَيْرِ اللَّهِ ، فَإِنِّي سَمِعْتُ رسول الله ﷺ يقول : « مَنْ حَلَفَ بِغَيْرِ اللَّهِ ، فَقَدْ كَفَرَ أَوْ أَشْرَكَ » [٣]،[٤].

جاهلاً (٢٢٦٥/٥) ح (٥٧٥٧) وكتاب الأيمان والنذور ، باب (٣) لا تَحْلِفُوا بِآبَائِكُمْ (٢٤٤٩/٦) ح (٦٢٧١) .

(١) التمهيد لابن عبد البر (٣٦٧/١٤) .

(٢) أخرجه أحمد في المسند (٦٢/٥) وقال شعيب الأرنؤوط : إسناده صحيح ، رجاله ثقات ، رجال الشيخين . وأخرجه الطبراني في المعجم الكبير (٢٥٤/٧) .

(٣) أخرجه الترمذي في سننه : كتاب النذور والأيمان ، باب (٨) ما جاء في كراهية الحلف بغير الله (١١٠/٤) ح (١٥٣٥) وقال : « هذا حديث حسن ، وَفُسِّرَ هذا الحديث عند بعض أهل العلم أن قوله : « فَقَدْ كَفَرَ أَوْ أَشْرَكَ » على التغليظ . والحجة في ذلك حديث ابن عمر أن النبي ﷺ سَمِعَ عُمَرَ يَقُولُ : وَأَبِي وَأَبِي ، فَقَالَ : « أَلا إِنَّ اللَّهَ يَنْهَاكُمْ أَنْ تَحْلِفُوا بِآبَائِكُمْ » . وَحَدِيثُ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ : « مَنْ قَالَ فِي حَلِفِهِ وَاللاتِ وَالْعُزَّى ، فَلْيَقُلْ : لا إِلَهَ إِلا اللَّهُ » . انتهى كلام الترمذي .

** وعلى هذا ، فالحديث حمل على من اعتقد فيما حلف به من التعظيم ما يعتقده في الله تعالى . ينظر : مغني المحتاج (٣٢٠/٤) .

(٤) ينظر : بدائع الصنائع (٨/٣) .

ولأن هذا النوع من الحلف يقتضي تعظيم المحلوف به ، وحقيقة العظمة مختصة بالله تعالى ، فهو ﷻ المستحق للتعظيم ، فلا يضاهي به غيره [١].

وقال ابن تيمية : « وقد اتفق العلماء على أنه لا تنعقد اليمين بغير الله ﷻ ، وهو الحلف بالمخلوقات ، فلو حلف بالكعبة ، أو بالملائكة ، أو بالأنبياء ، أو بأحد من الشيوخ ، أو بالملوك ، لم تنعقد يمينه ، ولا يشرع له ذلك .

بل ينهى عنه ، إما نهى تحريم ، وإما نهى تنزيه ، فإن للعلماء في ذلك قولين ، والصحيح أنه نهى تحريم .

ففي الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال : « مَنْ كَانَ حَالِفاً فَلْيَحْلِفْ بِاللَّهِ ، أَوْ لِيَصْمُتْ » [٢].

وفي الترمذي : ابن عمر ــ رضي الله عنهما ــ أن النبي ﷺ ، قال : « مَنْ حَلَفَ بِغَيْرِ اللَّهِ ، فَقَدْ أَشْرَكَ » [٣].

** **وقيل : يجوز للإنسان أن يحلف بأبيه أو الكعبة ، أو نحو ذلك** ، لأن الله تعالى أقسم ببعض مخلوقاته في القرآن الكريم .

كما استدلوا بقول النبي ﷺ للأعرابي السائل عن فرائض الإسلام : « أَفْلَحَ وَأَبِيهِ إِنْ صَدَقَ ، أَوْ دَخَلَ الْجَنَّةَ وَأَبِيهِ إِنْ صَدَقَ » [٤].

** **وردّ الجمهور على هذه الأدلة فقالوا :**

أما قسم الله ﷻ بمخلوقاته ، فإنما أقسم بها دلالة على قدرته وعظمته ﷻ ،

---

(١) ينظر : شرح النووي على صحيح مسلم (١٠٥/١١) .

(٢) الحديث سبق تخريجه ضمن هذا الحكم .

(٣) مجموع الفتاوى (٣٣٥/١) والحديث سبق تخريجه ضمن هذا الحكم .

(٤) أخرجه مسلم في صحيحه : كتاب الإيمان ، باب (٢) بيان الصلوات التي هي أحد أركان الإسلام (٤١/١) ح (١١) من حديث طلحة بن عبيد الله ﷺ .

ولله تعالى أن يقسم بما شاء من خلقه ، تنبيهاً على شرفه ، ولا وجه للقياس على ما يقسم به ﷻ .

** **وأما قول النبي ﷺ : « أفلح وأبيه إن صدق » . فقد ذكروا فيه عدة أجوبة :**

(١) أن هذا كان قبل نهيه ﷺ عن الحلف بالآباء .

(٢) أن هذه كلمة تجري على الألسنة للتأكيد ، من غير قصد لليمين .

قال الحافظ ابن حجر عن هذين الجوابين : « أقوى الأجوبة » [١].

(٣) أن هذه اللفظة تصحيف من الرواة إذ الأصل : «أفلح والله إن صدق»، وكانوا في السابق لا يشكلون الكلمات ، وكلمة « أبيه » تشبه لفظ الجلالة « الله » إذا حذفت النقاط .

واستنكر القرطبي هذا قائلاً : إنه يجزم الثقة بالروايات الصحيحة [٢].

(٤) أنه وقع من النبي ﷺ وهو من أبعد الناس عن الشرك ، فيكون من خصائصه ، لأن الناس لا يساوون النبي ﷺ في إخلاص التوحيد .

قال الحافظ ابن حجر عن هذا : « ويحتاج إلى دليل » [٣].

(٥) أن ذلك على حذف مضاف، والتقدير: «أفلح ورب أبيه إن صدق ».

ولكن ما لا يحتاج إلى تقدير أولى مما يحتاج إلى تقدير .

(٦) أن هذا منسوخ ، لأن من عادة العرب أنها كانت تحلف بآبائها ، وأن هذا اليمين كان جارياً على ألسنتهم ، فتُركوا حتى استقر الإيمان في نفوسهم ، ثم نهوا عنه ، وكان هذا من النبي ﷺ قبل أن ينسخ .

---

(١) فتح الباري (١٠٨/١) .
(٢) ينظر : المرجع السابق .
(٣) المرجع السابق (١٠٧/١) .

قال ابن عبد البر : « قوله ﷺ : « أفلح وأبيه إن صدق » ، أو « دخل الجنة وأبيه إن صدق » ، هذه لفظة إن صحت فهي منسوخة ، لنهي رسول الله ﷺ عن الحلف بالآباء ، وبغير الله » [١].

وقال ابن عثيمين : وهذا أقرب الوجوه [٢].

(٧) أن بعض العلماء أنكر هذه اللفظة ، وقال إنها لم تثبت ، فلا يصح نسبتها للرسول ﷺ ، لمناقضتها صريح التوحيد .

قال ابن عبد البر : « هذه لفظة غير محفوظة في هذا الحديث ، من حديث من يحتج به ، وقد روى هذا الحديث مالك وغيره ، عن أبي سهيل ، لم يقولوا ذلك فيه ، وقد روي عن إسماعيل بن جعفر هذا الحديث ، وفيه : « أفلح والله إن صدق» ، أو « دخل الجنة والله إن صدق » .

وهذا أولى من رواية من روى : « وأبيه » ، لأنها لفظة منكرة تردها الآثار الصحاح ، وبالله التوفيق » [٣].

** **ولكن هذا الوجه مردود** ، لأن الحديث بهذه اللفظة موجود في صحيح مسلم ، فهو صحيح لا مرية فيه ، وعليه فغير مقبول رده [٤].**

ثم إن لم يكن الحلف بغير الله محرماً ، فهو مكروه [٥] ، فإن حلف

---

(١) التمهيد لابن عبد البر (١٥٨/١٦) .
(٢) ينظر : القول المفيد على كتاب التوحيد لابن عثيمين (٢١٥/٢) .
(٣) التمهيد لابن عبد البر (٣٦٧/١٤) .
(٤) **ينظر في التوفيق بين الحديثين : التمهيد لابن عبد البر (٣٦٧/١٤) ، (١٥٨/١٦) وشرح النووي على صحيح مسلم (١٠٥/١١) وفتح الباري (١٠٧/١) والديباج على صحيح مسلم ، للعلامة جلال الدين السيوطي ــ ت ٩١١هـ ، تحقيق / أبو إسحاق الحويني الأثري (١٢/١) دار ابن عفان ــ الخبر ــ السعودية ، ط / ١٤١٦هـ - ١٩٩٦م .**
(٥) **قال الإمام ابن تيمية : . الحلف بالمخلوقات حرام عند الجمهور ، وهو مذهب أبي حنيفة ،**

فليستغفر الله تعالى ، أو ليذكر الله تعالى ، كما قال النبي ﷺ : « مَنْ حَلَفَ مِنْكُمْ فَقَالَ فِي حَلِفِهِ : بِاللاتِ وَالْعُزَّى ، فَلْيَقُلْ : لا إِلَهَ إِلا اللَّهُ ، وَمَنْ قَالَ لِصَاحِبِهِ : تَعَالَ أُقَامِرْكَ ، فَلْيَتَصَدَّقْ » (١).

قال أبو عمر بن عبد البر : « أجمع العلماء على أن اليمين بغير الله مكروهة منهي عنها ، لا يجوز الحلف بها لأحد » (٢).

كما أن الحلف بغير الله ﷻ سيئة ، والحسنة تمحو السيئة ، وقد قال تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ﴾ { هود : ١١٤ } .

وعن أبي ذر ﷺ قال : قُلْتُ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، أَوْصِنِي . قَالَ : « إِذَا عَمِلْتَ سَيِّئَةً فَأَتْبِعْهَا حَسَنَةً ، تَمْحُهَا . قَالَ : قُلْتُ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، أَمِنَ الْحَسَنَاتِ لا إِلَهَ إِلا اللَّهُ ؟ قَالَ : هِيَ أَفْضَلُ الْحَسَنَاتِ » (٣).

ولأن من حلف بغير الله فقد عظم غير الله تعظيماً يشبه تعظيم الرب تبارك وتعالى ، ولهذا سمي شركاً ، لكونه أشرك غير الله مع الله ﷻ في تعظيمه بالقسم به، فيقول : لا إله إلا الله ، توحيداً لله تعالى ، وبراءة من الشرك .

وأحد القولين في مذهب الشافعي وأحمد ، وقد حكي إجماع الصحابة على ذلك .
وقيل : هي مكروهة كراهة تنزيه ، والأول أصح . . مجموع الفتاوى (٢٠٤/١) .

(١) أخرجه البخاري في صحيحه : كتاب الأدب ، باب (٧٤) من لم ير إكفار من قال ذلك متأولاً أو جاهلاً (٢٢٦٤/٥) ح (٥٧٥٦) من حديث أبي هريرة ﷺ .

(٢) التمهيد لابن عبد البر (٣٦٧/١٤) .

(٣) أخرجه أحمد في المسند (١٦٩/٥) وقال شعيب الأرنؤوط : حسن لغيره ، وهذا إسناد ضعيف ، لجهالة أشياخ شمر ابن عطية . وأخرج أحمد أيضاً عن أبي ذر ﷺ أن النبي ﷺ قال له : . اتق الله حيثما كنت ، واتبع السيئة الحسنة تمحها ، وخالق الناس بخلق حسن . . قال شعيب الأرنؤوط : حسن لغيره ، وهذا إسناد رجاله ثقات ، رجال الشيخين غير ميمون بن أبي شبيب ، فقد روى له مسلم في المقدمة .

وقال الشافعي : من حلف بغير الله تعالى فليقل : استغفر الله (١).

✿ ✿ ✿ ✿ ✿ ✿ ✿ ✿

** ما ترشد إليه الآيات :

(١) لله ﷻ أن يقسم بما شاء من خلقه ، ﷻ ﴿ لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ﴾ { الأنبياء : ٢٣} .

** أما العباد ، فليس لهم أن يقسموا بغير الله تعالى ، وأسمائه ، وصفاته .

(٢) الدنيا لا تخلو من كدر ومن نصب ، وصدق الله العظيم حيث يقول: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ فِى كَبَدٍ﴾ { البلد : ٤ } .

(٣) الابتلاء سنة من سنن الله ﷻ الجارية في خلقه ، حتى مع أنبيائه ـ عليهم الصلاة والسلام ـ ، والصالحين .

(٤) بيان عظم مكانة سيدنا محمد ﷺ عند ربه ، فهو ﷺ محل العناية الربانية ، وهو ﷺ جليل القدر ، رفيع المنزلة .

(٥) مشروعية التذكير بالنعم والنقم ، التي حدثت للعبد ، حملاً للعبد على الصبر والشكر .

فمما يحسن للإنسان ، تذكر أيام العسر والضيق ، لأنه مدعاة للشكر ، ومدعاة لمعاونة المبتلى أيضاً ، لذا يجب التذكير بالماضي ، وما يتقلب فيه المرء من نعم، ليشكر الله تعالى عليها ، مهما كان في ماضيه من أذى أو حرج أو ضيق، فلا بأس أن يتذكر أو يذكر به ، حتى يشكر الله ﷻ على نعمه ، فيكون من

---

(١) ينظر حول هذا الحكم : المبسوط للسرخسي (٢٤/٧) وشرح النووي على صحيح مسلم (١٠٥/١١) والمغني لابن قدامة (٣٨٥/٩) والجامع لأحكام القرآن (٢٧٠/٦) وبدائع الصنائع (٨/٣) ومغني المحتاج (٣٢٠/٤) وفتح الباري (١٠٨/١) .

الشاكرين لله تعالى .

(٦) تعظيم الإسلام لحقوقِ اليتامى والفقراء والمساكين ، وبيان أن الإحسان إليهم من العبادة .

« إن السورة تذكر رسول الله ﷺ باليتم والفقر والغفلة ، وتأمره بناءً على ذلك الأوامر المذكورة ، وهي بذلك تذكر المسلم من طرف خفي بأن رسول الله ﷺ كان يتيماً فارحموا اليتامى ، وأكرموهم .

وأن رسول الله ﷺ كان فقيراً ، فارحموا الفقراء ، وأكرموهم ، وتواصوا في شأنهم خيراً .

وأن رسول الله ﷺ كان غافلاً قبل النبوة ، فاعطفوا على الغافلين وعلموهم»[1].

(٧) إن الأمر لرسول الله ﷺ أمر لأمته ، ما لم ينص على خصوصيته ﷺ بهذا الأمر ، ومن ثم فهذه الأوامر الواردة في هذه السورة المباركة ﴿ فَأَمَّا ٱلْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ . وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنْهَرْ . وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴾ ينبغي أن تأخذ مداها في التطبيق .

(٨) وجوب شكر النعم ، باستغلالها فيما خُلقت له ، مما يرضي المنعم ﷻ.

(٩) التحدث بنعمة الله ﷻ ــ وبخاصة نعمة الهدى والإيمان ــ صورة من صور الشكر للمنعم ، يكملها البر بعباده ، وهو المظهر العملي للشكر .

(١٠) تخليص الأنفس من البخل والشح ، لأن الله ﷻ لما أمر عباده ــ في شخص النبي ﷺ ــ أن يتحدثوا بنعمه عليهم ، وكان منهم البخيل ، وهو إذا امتثل بهذا الأمر ، فلن يستطيع أن يكتم ما عنده من الأموال .

---

(١) الأساس في التفسير (١١/٦٥٧٠) .

الخاتمة

وبعد ، فقد كان هذا البحث محاولة للقيام بتحليل سورة مباركة منفصلة على حدة ، وإبراز مكانتها التي تدل على ما فيها من عظات وعبر.

وإذ أعانني الله ﷻ على إتمام تفسير هذه السورة الكريمة ، أجدني قد توصلت من خلال عملي إلى جملة من النتائج والاستنتاجات التي ظهرت من البحث نفسه ، **من أهمها ما يلي :**

(١) إن هذه السّورة الكريمة في حد ذاتها ــ ضمن سياق باقي السور القرآنية ــ فيها دلالات متعددة ، وأوجه مختلفة للإعجاز القرآني . ولعل صيغها اللغوية وما يستنبط من تلك الصيغ من معانٍ وأفكار كان أحد تلك الأوجه .

(٢) كانت سورة الضحى إحدى السور التي امتازت ببناء الجملة القصيرة ، وتعداد آلاء الله ﷻ على رسوله ﷺ ، وتلك بعض خصائص السور المكية .

(٣) أبطلت السورة دعوى المشركين : أن الله قد ودع محمداً ﷺ وقلاه . وبينت أن انقطاع الوحي تلك الفترة لم يكن عن ترك ولا عن كره ، **وإنما لحكم جليلة ، من أهمها :**

(أ) إثبات أن القرآن العظيم من عند الله ﷻ .

(ب) إظهار مكانة النبي ﷺ عند ربه ﷻ ، فهو ﷺ محل العناية الربانية ، وهو ﷺ كريم المكانة ، جليل القدر ، رفيع المنزلة .

(ج) زيادة تشويق الرسول ﷺ إلى الوحي ، حتى يكتمل أُنسه وفرحه بنزوله ، فتطمئن نفسه ، وينشرح صدره .

(٤) أثبتت السورة الكريمة أن « الوحي ولقاء جبريل والاتصال بالله ، كانت هي زاد الرسول ﷺ في مشقة الطريق ، وسقياه في هجير الجحود ، وروْحه في لأواء التكذيب » [١].

فعلى المسلمين وخاصة الدعاة منهم أن يتأسوا برسول الله ﷺ في ذلك ، فيكون القرآن العظيم هو الزاد الذي يتزودون به في حياتهم ، حتى يستطيعوا حل كل ما يواجههم من مشكلات ، وينتصروا على مكر وكيد الأعداء .

(٥) اشتمل قوله تعالى : ﴿ وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ . وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ ﴾ على بشارة بحتمية النصر الإلهي للنبي ﷺ ولدينه ولأمته ، وأن يمكّن أمته من الخيرات التي يأملها النبي ﷺ لهم ، إذ اللام في قوله ﷺ : ﴿ لَّكَ ﴾ لام الاختصاص ، أي : خير مختص بك أيها الرسول ﷺ ، وهو شامل لكل ما له تعلق بنفس النبي ﷺ في ذاته ، وفي دِينه ، وفي أمته .

(٦) مشروعية التذكير بالنعم والنقم ، التي حدثت للعبد ، حملاً للعبد على الصبر والشكر .

(٧) تعظيم القرآن الكريم لحقوق الضعفاء والمحتاجين ، وفي مقدمتهم : اليتامى والفقراء والمساكين ، وبيان أن الإحسان إليهم من العبادة .

(٨) الاهتمام بتربية اليتامى ، وكفالتهم مادياً ومعنوياً ، حتى نقي المجتمع شر تشردهم ، وإهمال تربيتهم ، إذ « **لو علم الناس ما في إهمال تربية الأيتام من الفساد في الأمة** ، لقدروا عناية الله بأمرهم في كتابه قدرها ، ولبذلوا من سعيهم

---

(١) في ظلال القرآن (٦/٣٩٢٥) .

ومن مالهم ، في إصلاح حال الأيتام كل ما استطاعوا .

ولو أحس كل واحد بأن الموت قريب منه ، وأنه هدف لنيله ، لا يدري متى يأخذه عن ولده ــ فيتركه : إما غنياً يأكل ماله الأوصياء ، أو فقيراً يستذله الأدنياء ــ لتسابقوا إلى تقويم أمر اليتيم تسابقهم إلى اللذة والنعيم » [١].

(٩) التحدث بالنعمة ــ وبخاصة نعمة الهدى والإيمان ــ صورة من صور الشكر للمنعم ﷻ ، يكملها البر بالعباد ، وهو المظهر العملي للشكر ، لأن الشكر يكون بالقلب ، وباللسان ، وبالجوارح .

** **وعلى هذا ، فالأمر الوارد هنا بالتحدث بنعم الله** ، والاعتراف بها ، لا يجوز إلا إذا كان على وجه الشكر ، وبعد وقوعها ، وأن يظن المتحدث أن غيره يقتدي به ، وأن يأمن على نفسه الفتنة والإعجاب .

أما إذا أراد به الرياء والافتخار ، أو ظن أن ينكسر له خاطر من هو غير واجد مثل النعمة المتحدث بها ، فلا يجوز ، بل الستر أفضل .

** **واشترط بعض العلماء** : أن يكون التحدث بالنعمة ، للثقة من الإخوان ، ممن يثق بهم الشخص ، دون غيرهم .

(١٠) التكبير بعد قراءة سورة الضحى ، وخاتمة كل سورة بعدها ، مسألة خلافية بين القراء والعلماء ، وعليه ، فلا نقول: إنه يجب لمن ختم القرآن أن يفعله، ولكن نقول : إن من فعله فقد أحسن ، ومن تركه فلا حرج عليه ، فالتكبير مستحب ، وليس بواجب .

** إن السورة بمجموعها تربي الأمة في شخص نبيها ﷺ سيد الخلق ، والقدوة الحسنة ، والأسوة العليا .

---

(١) تفسير جزء عم للشيخ محمد عبده (صـ ٨٦) .

** وبعد ، فتلك أهم النتائج التي خرجت بها من هـذه الدراسـة ، وإنـي لأرجو من الله ﷻ العلي القدير أن تكون لبنة في صرح العلم ، قد أضافت إليه شيئاً جديداً ، وقدمت إلى مكتبة التفسير وعلوم القرآن بحثاً جاداً .

والله ﷻ أسأل أن أكون قد وفقت لما قصدت ، فهو نعـم المـولى ، ونعـم النصير .

ولا يسعني في نهاية هذه الخاتمة إلا أن أقف بقلب خاشع منيب بـين يـدي رب العالمين ﷻ ، معترفاً بفضله وكرمه وجوده ، فهو المتفضل ، وهو المكـرم ، وهو المعين ، وهو الموفق ، فله الحمد على ما مَنَّ به علـي أولاً وآخـراً ، و﴿ لَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْأُولَىٰ وَٱلْآخِرَةِ ۖ وَلَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ { القصص : ٧٠ } .

وآخر دعونا أن الحمد لله رب العالمين .

وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

✿ ✿ ✿ ✿ ✿ ✿ ✿

أهم المصادر والمراجع

١) القرآن الكريم .

٢) أحكام القرآن ، للإمام / أبي بكر أحمد بن علي الرازي الجصاص ــ ت ٣٧٠ هـ ، تحقيق/ محمد الصادق قمحاوي ، دار إحياء التراث العربي ــ بيروت ، ط / ١٤٠٥هـ .

٣) أحكام القرآن ، للإمام / أبي بكر محمد بن عبد الله المعافري المعـروف بابن العربي المالكي ــ ت٥٤٣هـ ، تحقيق/ علي محمد البجـاوي ــ دار إحياء الكتب العربية عيسى الحلبي ــ بدون .

٤) إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم ، للعلامة / أبـي الـسعود محمد بن محمد العمادي ــ ت ٩٥١هـ ، دار إحياء التـراث العربـي ــ بيروت ــ بدون .

٥) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن ، للعلامة / محمد الأمـين بـن محمد بن المختار الجكني الشنقيطي ــ ت١٣٩٣هـ ، دار الفكر ــ بيروت، ط / ١٤١٥هـ - ١٩٩٥م .

٦) الإتقان في علوم القرآن ، للإمام / أبي الفضل عبد الرحمن بن أبي بكر ابن محمد السيوطي ــ ت٩١١ هـ ، تحقيق / محمد أبو الفضل إبراهيم ــ الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ط / ١٩٧٥م .

٧) الأساس في التفسير ، للعلامة / سعيد حوى ــ دار السلام ــ القـاهرة ، ط / الثانية ١٤٠٩هـ - ١٩٨٩م .

٨) البحر المحيط في أصول الفقه ، للإمام / بدر الدين أبي عبد الله محمـد

ابن عبد الله الزركشي ــ ت ٧٩٤هـ ، تحقيق / عبد القادر عبد الله العاني، وآخرون ــ وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية ــ الكويت ، ط / الثانية ١٤١٣هـ .

٩) البرهان في علوم القرآن ، للإمام / بدر الدين أبي عبد الله محمد بن عبد الله الزركشي ــ ت ٧٩٤هـ ، تحقيق / محمد أبو الفضل إبراهيم ــ دار المعرفة ــ بيروت ــ بدون .

١٠) التبيان في أقسام القرآن ، للإمام / شمس الدين أبي عبد الله محمد بن أبي بكر بن قيم الجوزية ــ ت ٧٥١هـ ، دار الفكر ــ بيروت ، بدون.

١١) التحرير والتنوير ، للإمام / محمد الطاهر بن عاشور ــ ت ١٣٩٣هـ ، دار سحنون للنشر والتوزيع ــ تونس ١٩٩٧م .

١٢) التسهيل لعلوم التنزيل ، للإمام / محمد بن أحمد بن جزي الكلبي ــ ت ٧٤١هـ ، دار الكتاب العربي ــ بيروت ــ ط / الرابعة ١٤٠٣هـ ــ ١٩٨٣م .

١٣) التعريفات ، للعلامة / علي بن محمد بن علي الجرجاني ــ ت ٨١٦هـ، تحقيق / إبراهيم الإبياري ــ دار الكتاب العربي ــ بيروت ، ط / الأولى ١٤٠٥هـ .

١٤) التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج ، للدكتور / وهبة الزحيلي ــ دار الفكر ــ بيروت ، ط / الأولى ١٤١١هـ ــ ١٩٩١م .

١٥) التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد ، للإمام / أبي عمر يوسف ابن عبد الله بن عبد البر النمري ــ ت ٤٦٣هـ ، تحقيق / مصطفى بن أحمد العلوي ، ومحمد عبد الكبير البكري ــ وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية بالمغرب ، ط / ١٣٨٧هـ .

١٦) الجامع لأحكام القرآن ، للإمام / أبي عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر القرطبي ــ ت ٦٧١ هـ ، تحقيق / أحمد عبد العليم البردوني ــ دار الشعب ــ القاهرة ، ط / الثانية ١٣٧٢ هـ .

١٧) الدر المصون في علوم الكتاب المكنون ، للإمام / شهاب الدين أبي العباس بن يوسف ابن محمد بن إبراهيم ، المعروف بالسمين الحلبي ــ ت ٧٥٦هـ ، تحقيق الشيخ / علي محمد معوض ، وآخرون ــ دار الكتب العلمية ــ بيروت ، ط / الأولى ١٤١٤هـ ــ ١٩٩٤م .

١٨) الدر المنثور في التفسير بالمأثور ، للإمام / أبي الفضل عبد الرحمن بن أبي بكر بن محمد السيوطي ــ ت٩١١ هـ ، دار الفكر ــ بيروت ، ط / ١٩٩٣م .

١٩) السنن الصغرى ، للإمام / أبي بكر أحمد بن الحسين البيهقي ــ ت ٤٥٨هـ ، تحقيق / دكتور : محمد ضياء الرحمن الأعظمي ــ مكتبة الدار ــ المدينة المنورة ، ط / الأولى ١٤١٠هـ ــ ١٩٨٩م.

٢٠) السنن الكبرى ، للإمام / أبي بكر أحمد بن الحسين بن علي بن موسى البيهقي ــ ت ٤٥٨هـ ، تحقيق / محمد عبد القادر عطا ــ مكتبة دار الباز ــ مكة المكرمة ، ط / ١٤١٤هـ ــ ١٩٩٤م .

٢١) السيرة النبوية ، للإمام / أبي محمد عبد الملك بن هشام المعافري ــ ت ٢١٣هـ ،
تحقيق / طه عبد الرؤف سعد ــ دار الجيل ــ بيروت ، ط / الأولى ١٤١١هـ .

٢٢) الصحيح المسند من أسباب النزول ، للشيخ / مقبل بن هادي الوادعي ــ دار الأرقم ــ الكويت ، ط / الرابعة ١٠٤٥هـ .

٢٣) الفائق في غريب الحديث ، للإمام / جار الله أبي القاسم محمود بن عمر الزمخشري ـ ت ٥٣٨هـ ، تحقيق / علي محمد البجاوي ، ومحمد أبو الفضل إبراهيم ـ دار المعرفة ـ لبنان ، ط / الثانية ، بدون تاريخ .

٢٤) الفتوحات الإلهية بتوضيح تفسير الجلالين للدقائق الخفية ، للإمام / سليمان بن عمر العجيلي الشافعي ، الشهير بالجمل ـ ت ١٢٠٤هـ ، دار الكتب العلمية ـ بيروت ، ط / الأولى ، بدون .

٢٥) الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل ، للإمام / جار الله أبي القاسم محمود ابن عمر الزمخشري ـ ت ٥٣٨هـ ، تحقيق / عبد الرزاق المهدي ـ دار إحياء التراث العربي ـ بيروت ، ط / الثانية ١٤٢١هـ - ٢٠٠١م .

٢٧) المبسوط ، للإمام / شمس الدين أبي بكر محمد بن أبي سهل السرخسي ـ ت ٤٧٣ هـ ، دار المعرفة ـ بيروت ، ط / ١٤٠٦هـ .

٢٨) المجموع شرح المهذب ، للإمام / أبي زكريا يحيى بن شرف النووي ـ ت ٦٧٦هـ ، تحقيق / محمود مطرحي ـ دار الفكر ـ بيروت ، ط / الأولى ١٤١٧هـ - ١٩٩٦م .

٢٩) المحتسب في تبين وجوه شواذ القراءات والإيضاح عنها ، للإمام / أبي الفتح عثمان ابن جني ـ ت ٣٩٢هـ ، تحقيق / علي النجدي ناصف ، ودكتور / عبد الفتاح إسماعيل شلبي ـ المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ـ القاهرة ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م .

٣٠) المحرر الوجيز في تفسير كتاب العزيز ، للقاضي / أبي محمد عبد الحق ابن غالب ابن عطية الأندلسي ـ ت ٥٤٦هـ ، تحقيق / عبد السلام عبد الشافي محمد ـ دار الكتب العلمية ـ بيروت ، ط / الأولى ١٤٢٢هـ - ٢٠٠١هـ .

٣١) المدخل لدراسة القرآن الكريم ، للدكتور / محمد بن محمد أبو شهبة ـ مكتبة السنة ـ القاهرة ، ط / الثانية ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٣م .

٣٢) المستدرك على الصحيحين ، للحافظ / أبي عبد الله محمد بن عبد الله بن محمد الحاكم النيسابوري ـ ت ٤٠٥هـ ، وبذيله التلخيص ، للحافظ / شمس الدين محمد بن أحمد الذهبي ـ ت ٧٤٨هـ ، ط / دار الكتاب العربي ـ بيروت ، بدون .

٣٣) المسند ، للإمام / أبي عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل الشيباني ـ ت ٢٤١هـ ، مؤسسة قرطبة ـ مصر ، بدون .

٣٤) المصنف في الأحاديث والآثار ، للإمام / أبي بكر عبد الله بن محمد بن أبي شيبة الكوفي ـ ت ٢٣٥هـ ، تحقيق / كمال يوسف الحوت ـ مكتبة الرشد ـ الرياض ، ط / الأولى ١٤٠٩هـ .

٣٥) المعجم الأوسط ، للحافظ / أبي القاسم سليمان بن أحمد الطبراني ـ ت ٣٦٠هـ ، تحقيق / طارق ابن عوض الله بن محمد , وزميله ـ دار الحرمين ـ القاهرة ، ط / ١٤١٥هـ .

٣٦) المعجم الصغير ، للحافظ / أبي القاسم سليمان بن أحمد الطبراني ـ ت ٣٦٠هـ ، تحقيق / محمد شكور محمود ـ المكتب الإسلامي , بيروت , ط / الأولى ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م .

٣٧) المعجم الكبير، للحافظ / سليمان بن أحمد بن أيوب أبو القاسم الطبراني ـ ت٣٦٠هـ ، تحقيق / حمدي بن عبد المجيد السلفي ـ مكتبة العلوم والحكم ـ الموصل ، ط / الثانية ١٤٠٤ هـ .

٣٨) المعجم الوجيز لمجمع اللغة العربية ـ وزارة التربية والتعليم ـ القاهرة، ط / ١٩٩٢م .

٣٩) المعجم الوسيط ـ مجمع اللغة العربية ـ مكتبة الشروق الدولية ـ القاهرة ، ط / الرابعة ١٤٢٥هـ - ٢٠٠٤م .

٤٠) المغني في فقه الإمام أحمد بن حنبل الشيباني ، للإمام / أبي محمد عبدالله بن أحمد بن قدامة المقدسي ـ ت ٦٢٠هـ ، دار الفكر ـ بيروت ، ط / الأولى ١٤٠٥هـ .

٤١) المفردات في غريب القرآن ، للإمام / أبي القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهاني ـ ت ٥٠٢ هـ ، تحقيق / محمد خليل عيتَاني ـ دار المغرفة ـ بيروت ، ط / الأولى ١٤١٨هـ - ١٩٩٨م .

٤٢) النشر في القراءات العشر ، للحافظ / أبي الخير محمد بن محمد الدمشقي الشهير بابن
الجزري ، ت ٨٣٣ هـ ، أشرف على تصحيحه / علي محمد الضباع ـ دار الكتب العلمية ـ بيروت ، بدون .

٤٣) النكت والعيون ، للإمام / أبي الحسن علي بن حبيب الماوردي البصري ـ ت ٤٥٠هـ ، تحقيق / خضر محمد خضر ـ وزارة الأوقاف بالكويت ، ط / الأولى ١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م .

٤٥) النهاية في غريب الحديث والأثر ، للإمام / مجد الدين أبي السعادات المبارك بن محمد الجزري ابن الأثير ـ ت ٦٣٠هـ ، تحقيق / طاهر أحمد الزاوى ، ومحمود الطناحي ـ المكتبة العلمية ـ بيروت ، ط / ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م .

٤٦) إملاء ما منّ به الرحمن من وجوه الإعراب والقراءات في جميع القرآن « التبيان في إعراب
القرآن » ، للإمام / أبي البقاء عبد الله بن الحسين بن عبد الله العكبري

ـ ت٦١٦هـ ، تحقيق / علي محمد البجاوى ـ إحياء الكتب العربية ـ القاهرة ، بدون .

٤٧) أنوار التنزيل وأسرار التأويل ، للإمام / ناصر الدين أبي سعيد عبد الله ابن عمر الشيرازي البيضاوي ـ ت ٦٨٥هـ ، تحقيق /عبد القادر عرفات العشا حسونة ـ دار الفكر ـ بيروت ، ط / ١٤١٦ هـ .

٤٨) بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع ، للإمام / علاء الدين أبي بكر بن مسعود الكاساني الحنفي ـ ت ٥٨٧ هـ ، دار الكتاب العربي ـ بيروت ، ط / الثانية ١٩٨٢م .

٤٩) بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز، للإمام / مجد الدين محمد ابن يعقوب الفيروز آبادي ، ت ٨١٧ هـ ، تحقيق / محمد علي النجار ، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ـ القاهرة ـ ط / الثالثة ١٤١٦هـ - ١٩٩٦م .

٥٠) بهجة الأريب في بيان ما في كتاب الله العزيز من الغريب ، للإمام / علاء الدين علي ابن عثمان ابن إبراهيم الماردينى « المعروف بابن التركماني » ـ ت ٧٥٠هـ ، تحقيق / خالد محمد خميس ـ المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ـ القاهرة ، ط / ١٤٢٢هـ - ٢٠٠٢م .

٥١) تدريب الراوي في شرح تقريب النواوي ، للإمام / جلال الدين عبدالرحمن بن أبي بكر السيوطي ـ ت ٩١١هـ ، تحقيق / عبد الوهاب عبد اللطيف ـ مكتبة الرياض الحديثة ـ الرياض ـ بدون .

٥٢) تفسير البحر المحيط ، للإمام أبي حيان الأندلسي ـ ت ٧٤٥هـ ، تحقيق الشيخ / عادل أحمد عبد الموجود ، والشيخ /علي محمد معوض ـ دار الكتب العلمية ـ بيروت ، ط / الأولى ١٤١٣هـ .

٥٣) تفسير الخازن المسمى : لباب التأويل في معاني التنزيل ، للإمام / أبي الحسن علي بن محمد ابن إبراهيم البغدادي الشافعي ـ ت ٧٢٥هـ ، ط / دار الفكر ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م .

٥٤) تفسير القرآن العظيم ، للحافظ / أبي الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير الدمشقي ـ ت ٧٧٤ هـ ، دار الفكر ـ بيروت ، ط / ١٤٠١ هـ .

٥٥) تفسير القرآن العظيم مسنداً عن رسول الله ﷺ والصحابة والتابعين ، للحافظ / أبي محمد عبد الرحمن ابن أبي حاتم بن محمد بن إدريس الرازي ـ ت ٣٢٧هـ ، تحقيق / أسعد محمد الطيب ـ المكتبة العصرية ، صيدا ـ بيروت ، ط / الثانية ١٤١٩هـ - ١٩٩٩م .

٥٦) تفسير المشكل من غريب القرآن ، للإمام / مكي بن أبي طالب القيسي ـ ت٤٣٧هـ ،
تحقيق / د . علي حسين البواب ـ مكتبة المعارف ـ الرياض ، ط / ١٤٠٦هـ - ١٩٨٥م .

٥٧) تفسير جزء عم ، للإمام / محمد عبده ـ طبعة وزارة الأوقاف المصرية ١٩٩٧م .

٥٨) تفسير مجاهد ، للإمام / مجاهد بن جبر المكي المخزومي ـ ت ١٠٤ هـ ، تحقيق / عبد الرحمن الطاهر محمد السورتي ـ دار المنشورات العلمية ـ بيروت ـ بدون .

٥٩) جامع البيان عن تأويل آي القرآن ، للإمام / محمد بن جرير الطبري ـ ت ٣١٠ هـ ، دار الفكر ـ بيروت ، ط / ١٤٠٥هـ .

٦٠) حاشية السندي على سنن النسائي ، للعلامة / أبي الحسن نور الدين بن عبد الهادي السندي ـ ت ١١٣٨هـ ، تحقيق / عبد الفتاح أبو غدة ، مكتب

المطبوعات الإسلامية ـ حلب ، ط / الثانية ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م.

٦١) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني ، للعلامة / أبي الفضل شهاب الدين محمود الآلوسي البغدادي ـ ت ١٢٧٠هـ ، دار إحياء التراث العربي ـ بيروت .

٦٢) زاد المسير في علم التفسير ، للإمام / أبي الفرج جمال الدين عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي ـ ت ٥٩٧ هـ ، المكتب الإسلامي ـ بيروت ، ط / الثالثة ١٤٠٤هـ .

٦٣) سنن الترمذي « الجامع الصحيح » ، للإمام / أبي عيسى محمد بن عيسى بن سورة الترمذي ـ ت ٢٧٩هـ ، تحقيق / أحمد محمد شاكر ، وآخرون ، دار إحياء التراث العربي ـ بيروت ، بدون .

٦٤) سنن الدارمي ، للحافظ / أبي محمد عبد الله بن عبد الرحمن الدارمي السمرقندي ـ ت ٢٥٥هـ ، تحقيق / فواز أحمد زمرلي ، وخالد السبع العلمي ـ دار الكتاب العربي ، بيروت ، ط / الأولى ١٤٠٧هـ .

٦٥) سنن النسائي « المجتبى » ، للحافظ / أبي عبد الرحمن أحمد بن شعيب النسائي ـ ت٣٠٣هـ ، تحقيق/ عبد الفتاح أبو غدة ـ مكتب المطبوعات الإسلامية ـ حلب ، ط / الثانية ١٤٠٦هـ .

٦٦) شعب الإيمان ، للإمام / أبي بكر أحمد بن الحسين البيهقي ـ ت ٤٥٨هـ ، تحقيق / محمد السعيد بسيوني زغلول ـ دار الكتب العلمية ـ بيروت ، ط / الأولى ١٤١٠هـ .

٦٧) صحيح ابن حبان بترتيب ابن بلبان ، للحافظ / محمد بن حبان بن أحمد أبو حاتم التميمي البستي ـ ت ٣٥٤ هـ ، تحقيق / شعيب الأرنؤوط ، مؤسسة الرسالة ـ بيروت ، ط / الثانية ١٤١٤هـ .

٦٨) صحيح البخاري ، للإمام / أبي عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري الجعفي ـ ت ٢٥٦هـ ، تحقيق / د . مصطفى ديب البغا ـ دار ابن كثير ـ بيروت ، ط / الثالثة ١٤٠٧ هـ - ١٩٨٧م .

٦٩) صحيح مسلم ، للإمام / أبي الحسين مسلم بن الحجاج بن مسلم القشيري النيسابوري ـ ت ٢٦١هـ ، تحقيق / محمد فؤاد عبد الباقي ـ دار إحياء التراث العربي ـ بيروت ـ بدون .

٧٠) صحيح مسلم بشرح النووي ، للإمام / أبي زكريا يحيى بن شرف النووي ـ ت ٦٧٦هـ ـ دار إحياء التراث العربي ـ بيروت ، ط / الثانية ١٣٩٢هـ .

٧١) صفوة التفاسير ، للعلامة / محمد علي الصابوني ـ دار الصابوني ، ط / التاسعة ، بدون تاريخ .

٧٢) عقود المرجان في علوم القرآن ، للدكتور / أحمد محمد صيره ـ دار والي بالمنصورة ، ط / ١٤١٢ - ١٩٩١م .

٧٣) غرائب القرآن ورغائب الفرقان ، للإمام / نظام الدين الحسن بن محمد ابن الحسين النيسابوري ـ ت ٧٢٨هـ ، ـ دار الكتب العلمية ـ بيروت ، ط / الأولى ١٤١٦هـ - ١٩٩٦م .

٧٤) غريب القرآن ، للإمام / أبي بكر محمد السجستاني ـ ت ٣٣٠هـ ، دار التراث ـ القاهرة ـ بدون .

٧٥) غريب القرآن ، للإمام / أبي محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري ـ ت ٢٧٦هـ ، تحقيق/ السيد أحمد صقر ـ دار الكتب العلمية ـ بيروت ، ط / ١٣٩٨هـ - ١٩٧٨م .

٧٦) فتح الباري شرح صحيح البخاري ، للحافظ / أبي الفضل أحمد بن علي

ابن حجر العسقلاني ـ ت ٨٥٢هـ ، تحقيق / محمد فؤاد عبد الباقي ـ دار المعرفة ـ بيروت ، ط / ١٣٧٩هـ .

٧٧) فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير ، للإمام / محمد بن علي بن محمد الشوكاني ـ ت ١٢٥٠هـ ، دار الفكر ـ بيروت ، بدون .

٧٨) فقه السيرة ، للدكتور / محمد سعيد رمضان البوطي ـ دار الفكر ، ط / السابعة ١٣٩٨هـ - ١٩٧٨م .

٧٩) فقه السيرة ، للشيخ / محمد الغزالي ـ دار الكتب الإسلامية ـ القاهرة ، ط / الثامنة ١٤٠٢هـ ١٩٨٢م .

٨٠) فنون الأفنان في عيون علوم القرآن ، للإمام / أبي الفرج عبد الرحمن بن علي بن الجوزي ـ ت ٥٩٧هـ ، تحقيق / د . حسن ضياء الدين عتر ـ دار البشائر الإسلامية ـ بيروت ، ط / الأولى ١٤٠٨هـ - ١٩٨٧م .

٨١) في ظلال القرآن ، للأستاذ / سيد قطب ـ دار الشروق ، ط / الثانية عشرة ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م .

٨٢) قراءة عبد الله بن مسعود ، مكانتها ، مصادرها ، إحصاؤها ، للدكتور / محمد أحمد خاطر ـ دار الاعتصام ـ القاهرة ـ بدون .

٨٣) قواعد الترجيح عند المفسرين ـ دراسة نظرية تطبيقية ، للدكتور / حسين بن علي بن حسين الحربي ـ دار القاسم ـ بدون .

٨٤) قواعد التفسير ، للدكتور / خالد بن عثمان السبت ـ دار ابن عفان ـ القاهرة ، ط / الأولى ١٤١٧هـ - ١٩٩٧م .

٨٥) كشف الخفا ومزيل الإلباس عما اشتهر من الأحاديث على ألسنة الناس ، للمحدث / إسماعيل ابن محمد العجلوني الجراحي ـ ت ١١٦٢هـ ، تحقيق

/ أحمد القلاش ــ مؤسسة الرسالة ــ بيروت ، ط / الرابعة ١٤٠٥هـ .

٨٦) لسان العرب ، للإمام / جمال الدين أبي الفضل محمد بن مكرم بن علي ابن منظور الأفريقي المصري ــ ت٧١١ هـ ، دار صادر ــ بيروت ، ط / الأولى .

٨٧) مجمع البيان في تفسير القرآن ، للإمام / أبي علي الفضل بن الحسن بن الفضل الطبرسي ــ ت ٥٣٨هـ ، تحقيق / إبراهيم شمس الدين ــ دار الكتب العلمية ــ بيروت ، ط / الأولى ١٤١٨هـ .

٨٨) مجمع الزوائد ومنبع الفوائد ، للحافظ / نور الدين علي بن أبي بكر الهيثمي ــ ت ٨٠٧هـ ، دار الكتاب العربي ــ بيروت ــ ط / ١٤٠٧هـ.

٨٩) مجموع الفتاوى ، للإمام / أبي العباس أحمد بن عبد الحليم بن تيمية الحراني ــ ت ٧٢٨هـ ، تحقيق / عبد الرحمن محمد قاسم النجدي ــ مكتبة ابن تيمية ــ بدون .

٩٠) محاسن التأويل ، للإمام / محمد جمال الدين القاسمي ــ ت ١٣٣٢هـ ، تحقيق / محمد فؤاد عبد الباقي ، ط / الحلبي ــ القاهرة ، بدون .

٩١) مختار الصحاح ، للإمام / محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الرازي ــ ت٧٢١هـ ، تحقيق / محمود خاطر ــ مكتبة لبنان ناشرون ــ بيروت ، ط / ١٤١٥هـ ــ ١٩٩٥م .

٩٢) مختصر في شواذ القرآن من كتاب البديع ، للإمام / أبي عبد الله الحسين بن أحمد ابن خَالَوَيْه ــ ت ٣٧٠هـ ، عنى بنشره / برجشتر اسر ــ مكتبة المتنبي ــ القاهرة ــ بدون .

٩٣) مدارك التنزيل وحقائق التأويل ، للإمام / أبي البركات عبد الله بن أحمد النسفي ــ ت ٧٠١هـ ، ط / دار الفكر .

٩٤) معالم التنزيل ، للإمام / أبي محمد الحسين بن مسعود بن محمد المعروف بالفراء البغوي ــ ت ٥١٦هـ ، تحقيق / خالد العك ، ومروان سوار ــ دار المعرفة ، بيروت ، ط / الثانية ١٤٠٧ هـ .

٩٥) معاني القرآن ، للإمام / أبي زكريا يحيي بن زياد الفراء ــ ت ٢٠٧هـ ، تحقيق / أحمد يوسف نجاتي ، ومحمد علي النجار ــ دار السرور ــ بدون .

٩٦) مغني المحتاج إلى معرفة معاني ألفاظ المنهاج ، شرح الشيخ / شمس الدين محمد بن محمد الخطيب الشربيني ــ ت ٩٧٧هـ ، دار الفكر ــ بيروت ، بدون .

٩٧) مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير ، للإمام / فخر الدين محمد بن عمر بن الحسين بن التيمي الرازي ــ ت ٦٠٦هـ ، دار الكتب العلمية ــ بيروت ، ط / الأولى ١٤٢١هـ ــ ٢٠٠٠م .

٩٨) مناهل العرفان في علوم القرآن ، للشيخ / محمد عبد العظيم الزرقاني ــ ت ١٣٦٧هـ ، دار الفكر ــ بيروت ، ط / الأولى ١٩٩٦م .

٩٩) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور ، للإمام / برهان الدين أبي الحسن إبراهيم بن عمر البقاعي ــ ت ٨٨٥هـ ، تحقيق / عبد الرزاق غالب المهدي ــ دار الكتاب الإسلامي ــ القاهرة ، بدون .

* * *

فهرس الموضوعات

** مقدمة البحث ١٥١
** التمهيد : « بين يدي سورة الضحى » ، ويشتمل على : ١٢١
أسماء سورة الضحى ١٢١
زمن ومكان سورة الضحى ١٢٤
عدد آيات السورة ، وكلماتها وحروفها ١٢٥
فضل سورة الضحى ١٢٥
مناسبة سورة الضحى لما قبلها ١٣٠
سبب نزول سورة الضحى ١٣١
الحكمة من نزول هذه السورة المباركة ١٣٧
ما حوته السورة من موضوعات وأهداف ١٤٠
** التفسير التحليلي لسورة الضحى ١٤٣
معاني المفردات ١٤٣
المعنى العام ١٤٩
** التحليل والاستنتاج ١٥٤
تفسير قوله تعالى : ﴿ وَٱلضُّحَىٰ ﴾ ١٥٤
تفسير قوله تعالى : ﴿ وَٱلَّيۡلِ إِذَا سَجَىٰ ﴾ ١٥٦
تفسير قوله تعالى : ﴿ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ﴾ ١٥٨
أنواع التربية ١٦٢
العلاقة بين المقسم به ، والمقسم عليه ١٦٤
تفسير قوله تعالى : ﴿ وَلَلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ لَّكَ مِنَ ٱلۡأُولَىٰ ﴾ ١٦٨

تفسير قوله تعالى : ﴿ وَلَسَوۡفَ يُعۡطِيكَ رَبُّكَ فَتَرۡضَىٰٓ ﴾ ١٧٦
وقت تحقق هذا الوعد ١٨٠
تفسير قوله تعالى : ﴿ أَلَمۡ يَجِدۡكَ يَتِيمٗا فَـَٔاوَىٰ ﴾ ١٨٤
الحكمة من نشأة النبي ﷺ يتيماً ١٩٠
تفسير قوله تعالى : ﴿ وَوَجَدَكَ ضَآلّٗا فَهَدَىٰ ﴾ ١٩٤
أقوال المفسرين في المراد بالضلال ١٩٥
تفسير قوله تعالى : ﴿ وَوَجَدَكَ عَآئِلٗا فَأَغۡنَىٰ ﴾ ١٩٨
أقوال المفسرين في المراد بالغنى ، مع الترجيح ١٩٨
الحكمة من نشأة النبي ﷺ فقيراً ٢٠٢
الحكمة من امتنان الله ﷻ على نبيه ﷺ ٢٠٤
تفسير قوله تعالى : ﴿ فَأَمَّا ٱلۡيَتِيمَ فَلَا تَقۡهَرۡ ﴾ ٢٠٨
تفسير قوله تعالى : ﴿ وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنۡهَرۡ ﴾ ٢١٥
حكم المسألة والإلحاف فيها ٢١٦
تفسير قوله تعالى : ﴿ وَأَمَّا بِنِعۡمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثۡ ﴾ ٢٢٥
أقوال المفسرين في المراد بالنعمة ، مع الترجيح ٢٢٥
متى يجوز التحدث بنعم الله ﷻ ؟ ٢٣٠
التحدث بالنعمة صورة من صور شكر المنعم ﷻ ٢٣٤
الحكمة في تأخير حق الله ﷻ عن حق اليتيم والسائل ٢٣٦
التناسب بين تعداد النعم والوصايا ٢٣٦
** الأحكام الشرعية ٢٢٩
الحكم الأول : التكبير بعد قراءة سورة الضحى ٢٣٠
الحكم الثاني : الحلف بالمخلوقات ٢٤٤

** ما ترشد إليه الآيات ٢٥١
** الخاتمة ٢٥٣
** أهم المصادر والمراجع ٢٥٧
** فهرس الموضوعات ٢٧٠

تم بحمد الله ﷻ

* * *